المكتبة الثقافية
٧٣

الوطن في الأدب العربي

ابراهيم الإبياري

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ نوفمبر ١٩٦٢

المكتبة الثقافية
٧٣

الوطن
في الأدب العربي

ابراهيم الابياري

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

١٥ نوفمبر ١٩٦٢

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

منذ أن عرف الإنسانُ الوجود وعرفه الوجود عاش موصولا ببيئته لا فكاك له منها . وكادت أن تكون صلته ببيئته أوثق من صلته بأسرته ، فهو كما يُنسب إلى أسرته يُنسب إلى بيئته ، وكما يستفيد صُورته من أسرته يستفيدها من بيئته ،غير أنه ينمو فى أسرته موصولا بآحاد وينمو فى بيئته موصولا بأعداد .

وعلى قدر تلك الصلات تأتى الحقوق ، فإذا الحقوق التى عليه لمن حوله عامة تربى على الحقوق التى عليه لمن حوله خاصة ، وإذا هو حين يكبر فى أحضان البيئة العامة التى هى الوطن نراه قد انتُزع من أحضان البيئة الخاصة التى هى الأسرة. وإذا تفكيره لبيئته الخاصة يكون جزءاً من تفكيره لبيئته العامة ، وإذا هو حين تتنازعه عاطفتان صادقتان إحداهما لبيئته الخاصة — أعنى الأسرة — والأخرى لبيئته العامة ـ أعنى وطنه ـ يؤثر التى هى للوطن على التى هى للأسرة ، يَعُد التى هى للأسرة من حُبه

لوجوده ، ويَعُدّ التى هى لبيئته من حبه لوجود أمته ، وشتان ما بين حُب وحُب .

ومن صفة الإنسان الناهض نسيانه ذاته لذات أمته . تلك سُنة الرقى إن ضلّت وجودها فى الحياة ضلّت الحياة الحقة وجودها . ورُدّ الإنسان إلى بُدائية بعيدة لا تعلو به كثيراً عن مرتبة الحيوان . بل إن فى الحيوان ما فُطر على أن يعيش للجماعة التى يحيا بينها ، يرى كيانه جزءاً من كيانها ، مثل ذلك جماعات النمل وجماعات النحل .

* * *

ولقد عَرف الإنسان وطنه العام بعد أن عرف وطنه الخاص ، ما كاد يعرف الأول حتى تفتّحت عينُه على الثانى ، وما كاد يعرف أسرته حتى عرف أمته . وهكذا عَرف وطنا صغيرا ليعرف وطنا كبيراً ، وعرف أسرة ليعرف أمة .

والصورة التى يعرف عليها وطنه الصغير يعرف عليها وطنه الكبير . والأسباب التى تجمع بينه وبين أسرته تخلق الأسباب التي تجمع بينه وبين أمته ، يعرف وطنه الكبير حين يشب بما قَرّ فى نفسه عن وطنه الصغير حين دَبّ ، يُملى هنا بما أملاه عليه ذاك هناك .

وما فقد الإنسان أن يرعاه غيرُه صغيرا ، فهو لذلك لم يفقد أن يرعى غيرَه كبيرا . يطعم الحب فى مَهده فيندفع يُطعمه كما طَعمه وهكذا ينشأ مستفيداً ليشب مُفيداً ، بقدرما أخذ يعطى ووفق ما نال يَهَب .

وكما لم تكن المهاد سواسيةً فى الإعطاء لا يكون الناس سواسية فى الإيتاء ، يختلف ذلك فى نفوسهم قوة وضعفا ، ولكنهم على كل حال يظلون يملكون حظاً من رعاية وحظاً من حب لهذا الوطن الكبير ، بعد ما أسبغ عليهم رعايته وأظلّهم بحبه ذاك الوطن الصغير .

والأوطان التى تحرص على بقاء أبنائها موصولين بها بأسباب قوية مكينة ترعى لهم وجودهم الأول ليرعوا لها وجودهم الثانى ، وتحيطهم فى مهادهم ليحيطوها هم إلى لحُودهم ، تنظر إلى تلك المهاد نظرة الحى إلى ما به حياته ، وتنظر إلى تلك الأسرة نظرة الكل إلى جزئه ، ترى ألا حياة لها إلا فى أن تحيا تلك المهاد ، وترى ألاّ سلامة لها إلا فى أن تسلم هذه الأسر .

والمهد الأول وإن فترت فيه أشياء فثمة شيء واحد لا يفتر ، هو ذلك الحُب الذى يَعمُر به فِطرةً ويبذُله فِطرة . لهذا ينشأ الناشىء على حُبه لمهده وأهله ثم على حبه لوطنه وأمته . لا يفتر فيه هذا

الحب أو ذاك وقد يفتر فيه غيره مما يُسىء إلى هذا الحب إساءة تعويق وإبطاء لا إساءة إفناء، فالفطرة أقوى على الفناء.

ومن هنا اختلف الناس فى إعزاز أوطانهم والبذل لها كلهم محبون ولكنهم فى هذا الحب يختلفون.

وأرضك التى درجتَ على ظهرها، وتنسّمت هواءها، وطَعمت غذاءها، وشربت ماءها، كانت منها أجزاؤك التى انبنى بها جسمك، وخواطرك التى انعقد عليها فِكرك، ونوازعك التى استوى منها أملك، وعواطفك التى جمّعت فيك حميّتك، وأحاسيسك التى كونت لك عقلك. فأنت من هذه الأرض بجسمك وفكرك وأملك وحميتك وعقلك، بلسانها نطقت، وبهديها سعيت، وبعشيرتها احتميت.

فأنت لوطنك بهذا كله، ووطنك لك بهذا كله، وهذه الأسباب جميعها هى التى خلقت من تلك الأرض التى تحيا عليها وطناً وخلقت منك موطنا. وهى هى التى أوجبت عليه لك وأوجبت لك عليه، فعشت به وعاش بك.

تلك سُنة الوجود والخروجُ عليها خروج على الوجود، وما أنسى وطنه وأهله غير مريض. ولا بلغ أن يسوّى بين الناس جميعا والأرض جميعا فى حُبه إلا غافل أو متسامح.

وأنت حين تُحب أرضا غير أرضك تُحبها بوازع من حُبك لأرضك ، وكذلك أنت حين تحب أمة غير أمتك تحبها بوازع من حُبك لأمتك .

ولكنك حين تُردَّد إلى إيثار تُؤثر أرضك على كل أرض ، وتؤثر أمتك على كل أمة ، إذ ثمة مؤلِّفات من صفات وعادات ، فانت تأنس بالجليس إن كان فى زيك ، ثم تُقبل عليه إن كان على لُغتك ، ثم تحفى به إن كان من جنسك ، وإذا بك تلزمه إن كان على صفتك ، وهكذا كلما بدا لك منه جديد جامع دنوت منه ووصلت نفسك به . ومن هنا كان الحرص على اللغة والعادات والتقاليد وكل موروث، لأن من هذا كله هذه الأسبابَ الجامعةَ كلها .

وحُبك لوطنك لن يخلق منك عدوا لغير وطنك إلا إذا لَقنت الحب على غير صورته الحقة ، إذ حبك لوطنك من حُبك لوجودك ، وحبك لوجودك لا يعنى حرمان غيرك من الوجود ، إلا إذا استحال الحُب طمعاً ، وإذا استحال الحب طمعا ضلّ الوجود مَنْهَه ، وعدا الفرد على الفرد ، والوطن على الوطن ، يُغرى بهذا ذاك الطمعُ الذى نخاله حبا .

فأنت إذا ملكت الحُب لوطنك ملكت الحب للوجود كله ،

تبادل الأوطان حُبًّا بحُب ، وتبادلك الأوطان حُبا بحب ؛ حُبًّا لا يشوبه طمع ، ولا تخالطه نزوة ، فيسلم لك وطنك وتسلم للناس أوطانهم ، وإذا هذا الحب للوطن الخاص يكون جزءا من الحب للوطن العام ، وإذا أهل الأرض قد بلغوا ما يريده لهم دُعاة الخير من أمن وسلام .

والقلوب حين تعمرُ بالحب لا تعرف الكراهية ، وحين تعمر بالخير لاتعرف الضُّر ، وإذا وقعتَ على من يكره فاعرفه خاويَ الوفاض من الحب ، واعرف ما يصدُر عنه من ذلك لوناً من ألوان الزَّيف ، وإذا وقعت على من يضُر فأنكر عليه أنه موصولٌ بخير ، وعُدَّ ما يقع له من ذلك لوناً من ألوان الرياء .

فما أدرك أن يسمَّى محبا من يتسع قلبه لكراهية ، وما أدرك أن يُسمَّى خيِّراً من يجمع خيره من ضُر غيره .

* * *

وبعد فما خلا أدب أمة من حب ، وما خلا هذا الحب — فيما نعلم — من شيء يخص الوطن ، وكان هذا الذى يخص الوطن لوناً بذاته له صفاتُه وله مميزاته .

ونحب أن نطالع هذا اللون من ألوان الحب ، وأعنى به حب الوطن ، فى الأدب العربى ، نحب أن نطالعه على مر الأيام

ونستمع إليه على مختلف الألسنة ، ثم نحب بعد هذا أن نعرف بواعثه من النفوس ومدلوله على الشفاه وأثره فى الأسماع ، ونحب أن نصور من هذا كله صورة كاملة لصفتين اثنتين :

أولاهما : هل عَبَّرَ هذا الأدب وأحسن التعبير عما تكن الصدور .

وثانيتهما : هل نشّأ هذا الأدب فأحسن التنشئة أجيالا تُحب الأوطان مع وطنها وتحب الأهلين مع أهلها ، ترعى لوطنها حقه وترعى للأوطان حقوقها ، ثم هى على هذا تؤثر وطنها على الأوطان ، تحب أن يَسبق خطوهُ ، وأن تعلو كعبه ، وأن يسمو على الضر والإضرار .

— ٢ —

فأنت كما قلت لك سوف تستقبل حُبًّا ذا طابع خاص ، حبا يتسم بالوقار والهدوء ، حُبًّا استوت مشاعره وكملت دوافعه فتلقّفته النفوس مُستويا كاملا ، حُبًّا دخل إلى النفوس مع الماء والهواء والطعام نخالط اللحم والعظم والدم ، وأحسّته الحواس كلها مع ما تُحس فنشأت به الحواس كلها ، حُبا لم تعرفه النفوس شيئا طارئا فتهيج لشيء طارىء ثم تخمد ، كما لم تُحسه الحواس شيئا جديدا فيستخفّها هذا الشيء الجديد ثم تهمد .

من أجل ذلك اتسم حب الأوطان بالوفاء والهدوء ، ولم يأخذ هذا الطابع المضطرب المائج الذى يبدو مع ألوان أخرى من الحب ، ولكنه على وقاره وهدوئه كان أبعد أثرا وأعمق مكانا ، ثم هو ثابت لا يعرف التقلب ، باق لا يعرف الزوال ، تام لا يعرف النقصان ، قُدسى يستعصى على الجُحود ، نبيل يتأبّى على العقوق .

وهو لهذا كله قلّ على الألسنة ، وكثر في الأفئدة ، واستحال قضايا دعائمها أدلة يستمسك بها العقل ، ولم يغد لواعج دوافعها مشاعر تضطرب بها القلوب حينا ثم تسكن .

فأنت على هذا سوف تطالع حُبا جادا ، حُبا يُملى فيه العقل كثيرا وتُملى فيه العاطفة قليلا ، أعنى أنه حب يُدرك الإنسان أسبابه ويدرك أهدافه فهو بادىء فيه عن عقل مُنتهٍ فيه عن عقل ، والعاطفة فى ظل هذا كله حيّة لا تخمد ، ذاكية لا تفتر ، لا تُملى ولكنها تستملى ، وهى مع استملائها تُضفى على منطق العقل الرزين وَلَه المُحب المُدلَّه .

من أجل ذلك كاد منطق العقل أن يُخرج حب الأوطان إلى صور أخرى ليست أدبا وليست حبا ، وإنما هى من العلم والعلم البحت ، ولكنها على صورتها هذه العلمية تحمل بواعثها من الحُب العميق . فعلمك بالشىء صورة من شغفك به ، وإذا جرّك هذا العلم إلى أن تُملى فيه وتؤلف عنه دلّ ذلك على عُمق شغفك به ، وفرط حبك له ، والعلم كالأدب لون من ألوان التعبير عما تزخر النفس ، وصورة العلم فى النفس ليست أدنى من صورة الحب ، كلتاهما قد تستحيل هُياما وتستحيل ولها ، غير أنهما تختلفان إملاء ، فصورة الحب تُملى تحرّقا

وتشوقا ووجدا وتدلُّهًا ينتظمها الأدب فى إطاريه : الشعر والنثر . وصورة العلم تُملى منطقا ودرسا وتمجيدا وإشادة ، ينتظمها التأليف فى إطارات مختلفة .

بهذا نستطيع أن نُعلل تلك الظواهر التى اكتنفت هذا اللون من الحب — وأعنى به حب الوطن — فى الأدب العربى وغيره . فلم نر العرب وغيرهم أكثروا فيه إكثارهم فى غيره ، ولم نرهم تدلَّهوا تدلهم فى غيره ، وكان هذا — كما علمت — لا عن فتور ولكن كان عن أصالة هذا الحب ، تلك الأصالة التى أحالته قضية ذهنية فى الأكثر وقضية عاطفية فى الأقل ، وإذا هو حين استحال قضية ذهنية يستحيل قضية علمية ، وإذا هو علم يؤلَّف فيه ، وإذا هو شىء تختص به كُتب وتُستفتح به كتب وتنفرد به أبواب من كتب .

وابن عساكر مثلا وهو يؤلف عن دمشق تاريخه الكبير يُفرد جزءاً عن فضائلها ثم يمضى يجمع من نشأ فيها ومن دخل إليها ومن وصل حبله بحبلها ، وكذلك فعل الخطيب فى تأريخه لبغداد ، وفعل كثير غيرهما .

تقرأ فى هذا كله تاريخا ، ولكنك تقرأ بين أسطر هذا التاريخ حب هؤلاء المؤرخين لبلادهم ، هذا الحب الذى استحال

علماثم نفث عنه أصحابه فى هذه الأسفار الطوال التى تحمل التمجيد الكبير لتلك البلاد .

وما نظن شاعرا إن أطال وأجاد ، وناثرا إن أكثر وفصل ، يبالغين أكثر مما بلغ إليه هؤلاء المؤرخون فى الدلالة على هذا الحب الدفين . ولكنهما صورتان — كما قلت لك — تنتهيان إلى باعث واحد ، هو حب الوطن .

فهذا التأليف حول الأوطان هو عندى ثمرة من ثمار الحب الجاد الرزين ، وأن تلك الكثرة من تلك التآليف حول الأوطان تدلك على أصالة هذا الحب فى النفوس . نعرف ذلك للعرب ونعرفه لغير العرب ، والمتصفح للتاريخ العربى يرى فى ذلك شيئا كثيرا فثمة كتب خالصة لبلدان بعينها ، وثمة كتب تضم فصولا حول بلدان ، وثمة كتب تحوى إشارات إلى بلدان .

هذا كله تحويه المكتبة العربية ، أردت أن أسبق به لأشير إلى جانب كبير سجله التراث العربى عن الوطن ، ولكنه على هذا سوف لا تكون لنا منه مادة تفيد هذا الحديث غير تلك الإشارة العابرة ، إذ سوف لا نسوق هنا إلا ما هو أدب لا تاريخ ، لا تهويناً من التاريخ ، بل لأنه جانب آخر يُعوزه حديث آخر ، وأنا هنا قاصر الحديث على ماهو أدبى وما ينتظمه

الأدب نثره وشعره عن الوطن ، من أجل ذلك سوف أترك ذاك الشق الأخير لحديث آخر يعالج صُنع المؤرخين عن الأوطان وما بلغوا فى ذلك وما حققوا .

ولقد أردت أن أشير إلى هذا الذى أنا تاركه بتلك الإشارة لأدلك على شطرى الحديث ، ولأدلك على أن التراث العربى اتسع للوطن اتساعا كبيرا علماً وأدبا .

ولقد قلت لك إن الأديب والعالم مع الأدب والعلم مُحببان يختلفان أخذا ، ويختلفان إملاء .

غير أن الأدب يخاطب العاطفة والعلم يخاطب العقل ، وأنت حين تُنشىء الأجيال على فضيلة محتاج إلى أن تهيء العواطف قبل أن تبلغ إلى العقول ، محتاج إلى الأدب قبل أن تحتاج إلى العلم .

ولا تحسبنَّ الذين أشربت نفوسهم محبة بلادهم بلغوا ذلك إلا عن عناية وعناية وعناية ، فسمعوا كلمة الوطن مع كل ما يسمعون ، ورأوها فى كل ما ينظرون ، وأحسّوها فى كل ما يحسون ، فملأت عليهم السمع والبصر والفؤاد ، عزّت عليهم فحمُوا لها وتاموا بها .

وإنك لمستطيع أن تجعلنى على صلة وثيقة بوطنى إذا وفّرت

لى الكثير من الأسباب الواصلة ، فملأت منى السمع عنه بكل شائقة ، وجلوت البصر منه بكل رائقة ، ونفثت فى روعى له كل تائقة ، من مآثر أمجاده ، ومجالى تلاده ، وحُرمَته وعِهاده .

وليس شيء يتولى هذا فيبلغ فى بيان ، ويصل فى روعة ، وينفذ فى طلاوة ، غير الأدب .

فكم من حديث وحديث تصدف عنه الأذهان ولا تُرهف له ، وكم من مجلى ومجلى تقع عليه العين ولكنها لا تدوم عليه ، وكم من صالحة وصالحة تَمُر ولا تُمسك النفوس منها شيئا ، فإذا ما تهيأ الأدب لهذا كله بقى له حُسنه اللافت ، وعُجْبه المثير . وما خَلدت الرياحين بأعباقها ، ولا الورود بألوانها ، ولا المشاهد بمفاتنها ، وإنما الأدب وحده هو الذى خلّد هذا كله من هذه كلها .

وما أكثر ما تزخَر به الحياة من خبيثة وطيّبة ، وما أحسب السوط وزَع فأجدى ، ولا الثواب رغّب فأغنى ، فإذا ما أتيح لهذه وتلك لسانٌ من ألسنة الأدب ينفذ إلى النفوس ، ويُوغل فى الأفئدة ، نفّر وحبّب ، وأبعد وقرّب .

وبهذا الأدب البالغ وصل ربُّك بين الناس ودينهم نخار

لوحيه أشرق كلم ، وأبلغ عبارة ، وأروع بيان ، ونزّله على رسوله قُرآنا مُبينا يُقبلون عليه أبسطَ ما يكونون نفوسا ، وأشرح ما يكونون صدورا ، وأروح ما يكونون أفئدة .

هذا هو الأدب وتلك رسالته ، ماخلّده خلّد فى الأفئدة والقلوب والعقول ، يبقى أثره صدًى فى الأسماع ، وحركةً على الألسن ، وخيالا فى الأعين ، ووَجيبا تخفق به القلوب والأفئدة.

ومن هنا كان قليله يعدل كثير غيره ، يعيش الوطن فى ثنايا السطر من الشعر والنثر كما يعيش على صفحات كتاب بأكمله .

- ٣ -

ولقد عاش العربى الأول على أرضه فى نُقلة دائبة، يرتاد معها منابت الغيث، فى تلك الفيافى اللافحة الماحلة الظامئة، يطلب كِنًّا ومَطعما وريًّا، لا يكاد يستقِر به المطاف على مَربع حتى ينهض إلى سواه، ويكاد يكون مَشتاه غير مَقيظه، ومقيظه غير مشتاه. يقول طرفة:

حيثما قاظوا بنجد وشتَوا
عند ذات الطَّلْح من ثِنْىٍ وقُر

(ذات الطلح وثنى وقر : أمكنة).

ومع هذه الحركة العَجِلة والتلبُّث المفزّع فلقد كان لكل قبيل معاهِده، لا يتحولون عنها إلا مع قهر قاهر، كأن تُمسك السماء بعد إرسال، أو أن يُخرجهم عنها قوىٌّ عنيد، وإلا فحيث كانوا يكونون، يستقبلونها مراتع مُعشبة، ويولُّون عنها دِمَنًا عافية، وآثاراً حائلة، يهشّون لها فى الأولى وكأنهم

يستقبلون الدنيا بما زخرت ، ويبكونها فى الثانية وكأنهم يبكون الدنيا كلها وقد تولّت . يقول عبيد بن الأبرص :

منزل دمّنه آباؤنا الـ ـمورثون المجد فى أولى الليالى

(دمّنه : سوده بآثاره فيه) .

ويقول زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تَكَلَّمِ
بحومانة الدّراج فالمُتثلم

(حومانة الدراج والمتثلم : موضعان) .

ديار لها بالرَّقمتين كأنها
مراجع وَشْم فى نواشر معصم

(الرقمتان : روضتان . ونواشر المعصم : عروقه الظاهرة).

إلى أن يقول :

وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأْياً عرفت الدار بعد توهّم

ثم يقول :

فلما عرفت الدار قلت لربعها
ألا عِمْ صباحاً أيها الربيع واسلم

وعلِمْنا أن قبائل العرب لم تخرُج عن منازلها ولم تُبعد

عنها كثيراً ، إلا مع سيل عارم يقذف بالناس إلى حيث لا يعرفون، أو جدب متصل يُشتتهم أشتاتا ، وهم مع هذه وتلك قد أمسكهم وطن عام غلب عليهم بمقّوماته ووسعتْهم رُقعته ، هو الجزيرة العربية بصفاتها التي تكاد تكون موحّدة .

وما من شك في أن العربي الأول فَنِيَ في قبيله أكثر مما فني في موطنه ، فلقد عرف الوطن الأول لا قرار له عليه إلا بَجماعة قومه ، وعرّفته طبيعةُ الأرض كما عرّفه خُلف السماء أن البقاء على أديم لا يجود هلاك وفناء ، فلم يُمسك الأرض إلا إذا أمسكته هي بما تخرج ، ولم يُبق عليها إلا إذا بقيت هي له خصباً وأمنا ، إلا أنه مع هذا كله كان لا ينساها إذا تحول عنها ، ويبقى يذكر مراتعه بين ظلالها ، كما يقول الأشجعي :

أحِنُّ إلى تلك الأبارق من قنا
كأنَّ امرأً لم يجْلُ عن داره قبلي

وكانوا حين يضعون الرحال لمقام فارغون لكد الحياة ساعة، وللّهو ساعات، إن لم تملأْ عليهم الغارات أيامهم والسنوات. وكانت ذكرياتهم التي تعلق بنفوسهم في مُقامهم لا تتصل كثيراً بكد الحياة فما هي إلا سماء تَصُوب وأرض تَجُود ، وحديث

تلك الحياة بما تعطي وتأخذ ليس من أحاديث النفوس لا سيما نفوس الشعراء حين يَشبون وتَشب معهم عواطف جامحة فيها متنفّس لما يأخذ بالخناق من إقفار القفر ، وتلك الخصومات الشاجنة على الماء والنبات، لذلك كان الشعراء أكثر ما يذكرون الديار، يذكرونها مع هوى نعموا به على أرضها ، أو مع وقائع وأيام نالوا فيها وخسروا . اسمع إلى قول قائلهم :

وطن اللهو الذى جَرّ الصبي
فيه أذيال الهوى مُستوطَنا

ويقول ابن الرومى :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا
ولبستُ ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثّل فى الضمير رأيته
وعليه أغصانُ الشباب تَميد

ويقول ابن المنجِّم :

بلاد بها حَلّ الشباب تمائمى
وأول أرض مَسّ جلدى تُرابها

ويقول ابن ميّادة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بحرّة ليلى حيث ربّبنى أهلى
بلاد بها نيطت علىّ قلائدى
وقطعن عنّى حين أدركنى عقلى

ويقول جعفر بن علبة الحارثى :

ألا هل إلى ظل النضارات بالضحى
سبيل وتغريد الحمام المطوق
وشربة ماء من جدورة طيب
جرى بين أفنان العضاه المسّوق

جدورة : بئر. والعضاه : شجر . والمسوق: الذى له سوق ، أى جذوع .

وسيرى مع الفتيان كل عشية
أبارى مطاياهم ببيداء سملق

بيداء سملق : مستوية لا شجر فيها .

ولبعض الشعراء :

ألا قل لدارٍ بين أكثبة الحِمي
وذات الفضى جادت عليك الهواضب

أجدّك لا آتيك إلا تقلّبت
دموع أضاعت ماحفظتُ سواكب
ديار تناسمت الهواء بجوها
وطاوعني فيها الهوى والحبائب

ويقول أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي .

ما أنس لا أنس الجزيرة ملعبا
للأنس تألفه الحسان الخُرد
يجري النسيم بغصنها وغديرها
فيُهز رمح أو يُسل مُهنّد
ويزين دمع الطل كل شقيقة
كالخد دبّ به عِذار أسود

ويقول أعرابي:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة
بأكناف نجد وهي خضر مُتونها
وهل أشربنّ الدهر من ماء مزنة
بحرّة ليلى حيث فاض مَعينها
تفيأت فيها بالشباب وبالصِّبي
تَميل بما أهوى على غصونُها

وأنشد الأصمعى لصدقة بن نافع الغنوى :

ألا ليت شعرى هل تحنَّنَ ناقتى
بيضاء نجد حيث كان مسيرها

بلاد بها أنضَيت راحلة الصبى
ولانت لنا أيامها وشهورها

فقدنا بها الهم المُكدر شربه
ودار علينا بالنَّعيم سرورها

ويقول الموصلى :

ألا يا حبذا جنات سَلمى ... وجاد رياَضها جون السحاب
خلعت بها العذار ونلت فيها ... مُناى بطاعة أو باغتصاب
أسوم بياطلى طلبات لهوى ... ويعذرنى بها عصرُ الشباب

ولابن عساكر :

إذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتى ... فليس مكانى فى النُّهى بمكين
من العقل أن أشتاق أول منزل ... غنيت بخَفض فى ذُراه ولين
وروض رعاه بالأصائل ناظرى ... وغصن ثناه بالغَداة يَمينى

ولآخر :

إذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعى
وأضحى فؤادى نُهبة للهماهم

(المماهم : الهموم)

حنيننا إلى أرض بها اخضر شاربى
ومُحلَّت بها عنى عُقود التمائم
وألطف قوم بالفتى أهل أرضه
وأرعاهمُ للمرء حق التقادم

ويروون لحماد بن إسحاق الموصلى :

أحب بلاد الله ما بين صَارة ... إلى غَطفان أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمائمى ... وأول أرض مَسّ جلدى ترابها

وما أحسن ما ذكر به أبو بكر أحمد بن محمد العيدى عدن أبين حين قال :

حيّاك ياعدنْ الحيا حياك
وجرى رضاب لماه فوق لماك
وافترّ ثغر الروض فيك مضاحِماً
بالنشر رونق ثغرك الضحاك
ووشت حدائقه عليك مطارفاً
يختال فى حبراتها عطفاك
ولقد خصصت بسرّ فضل أصبحت
فيه القلوب وهن من أسراك

أصبو إلى أنفاس طيبك كلما
أسرى بنفحتها نسيم صَباك
وتقر عينى أن أراك أنيقة
لا رمل عرجاء ودوح أراك
كم من غريب الحسن فيك كأنما
مرآه فى إشراقك مرآك

فهؤلاء الشعراء كلهم كما ترى يحنون إلى وطنهم هذا الحنين المشفوع بما ذاقوه على أرضه من هوى، وبما لبسوا من شباب، واستظلوا من ظل، وأنضوا من رواحل، وأنه كان على هذا كله رحيما بهم حانياً عليهم.

ويقول القيسرانى :

عرجاً بالأثارب كى أقضِّى مآربى
(الأثارب : قلعة بين حلب وأنطاكية)
واسرقا نوم مُقلتى من جُفون الكواعب
واعجبا من ضلالتى بين عين وحاجب

ويقول الراجز :

أتعرف الدار بذى أجراذ داراً لسُعدى وابنتى معاذ

ويذكر أعرابى موطنه فى الأبرقين — منزل على طريق مكة من البصرة — فيذكره موصولا بهواه فيقول :

أقول وفوق البحر تحتي سفينة ... تميل على الأعطاف كلَّ مَميل
ألا أيها الركب الذين دليلُهم ... سُهيل اليمانى دون كل دليل
ألمّوا بأهل الأبرقين فسلّموا ... وذاك لأهل الأبرقين قليل
بأهلى أفدّى الأبرقين وجيرةً ... سأهجرهم لا عن قلًى ذا طيل
ألا هل إلى سرح ألِفتُ ظلاله ... وتكليم ليلى ما حَييت سبيل

ويقول آخر :

يَقَرُّ بعينى أن أرى مَنْ مكانُه ... ذُرا عَقَدات الأبرق المُتقاود
وأن أرِد الماء الذى شَربت به ... سُليمى وقد ملّ السُّرى كل واخد
وألصق أحشائى ببَرد تُرابه ... وإن كان مَخْلوطا بسُم الأساود

ويقول ذو الرمة :

إذا هبّت الأرواح من نحو جانب ... به أهلُ مى هاج قلبى هُبوبها
هوًى تذرف العينان منه وإنما ... هوى كل نفس حيثُ حلّ حبيبها

ويقول أبو النصر الأسدى :

أحِب الأرض تسكنها سُليمى ... وإن كانت بواديها الجُدوب

وما عهدى بحُب تراب أرض
ولكنّ من يحُل بها حبيب

فها أنت تراه يشفع حبه لبيئته بحبه لمحبوبته ، ويهيج فى نفسه محبته له لمحبوبته حبه لبيئته .

وما أصدق الشاعر حيث يقول :

ثوى فى حفرة العانات يمنٌ
تغلغل فى المنازل والرباع
وإن تهو البقاع فليس غرواً
هوى أهل البقاع هوى البقاع

وكما ذكروا الوطن بما ذاقوا على ثراه من رشفات للحب عذبة ، فقد ذكروه بما كسبوا على رباه من فخر الفتوة وعز البطولة ، وهكذا كان الوطن — كما عرفه العربى — جزءا من حياته يشركه فى لينه وبطشه يذكره باسمه صريحا ولا يجتزىء عنه بإشارة .

يقول حضرمى بن عامر :

تسلى إما سألت الحى تيما — غداة الأثل عن شدى وكرى
وقد علموا غداة الأثل أنى — شديد فى عجاج النقع مُضرى

ويقول عبيد بن وهب فى وقعه لقومه كانت عند حصن المشقّر :

ألا هل أتى قومى على النأى أنَّنى
حَميت ذمارى يوم باب المُشَقَّر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة
تفرّج منها كل باب مضَبَّر

(مضبر : قوىّ مكين) .

ويقول العُديل بن الفرخ فى يوم كان لقومه بذى قار :

ما أوقد الناس من يوم لمكرُمة
إلا اصطلينا وكُنا موُقدى النار
وما يعُدون من يوم سمعت به
للناس أفضل من يوم بذى قار

ويقول ابن الحائك فى وقعة كانت لقومه بخزازى :

كانت لنا بخُزازى وقعةٌ عَجَبٌ
لمُا التقينا وحادى الموت يَحْديها

ويقول عامر بن الطفيل فى يوم كان له بفَيف الريح :

وقد علموا أنى أكُر عليهمُ
عشيةَ فيف الريح كَرّ المُدَوّر

ونختم هذا بقول أبي الغول الطهوى في وقعة كانت لقومه بالوقبى :

فدت نفسى وما ملكت يمينى   فوارس صدّقت فيهم ظنونى
هم مَنعوا حمى الوَقبى بضَرب   يؤلِّف بين أشتات المنَون

فمثل هذا كثير نقرؤه في أخبار أيامهم ووقائعهم .

وهم بعد هذه وتلك كانوا إذا ندبوا موتاهم ندبوهم حيث يثوون ، ولعلهم أرادوا بهذا أن يحفظوا موتاهم فلا يضيعوا بين جنبات الموماه ، أم لعله الوطن لم يشاءوا أن يخلوَ منه مظهر من مظاهر حياتهم ، طبيعة ليس معها روّية ، وسليقة لم يرسم لها فكر . وإنك لذاكر معى قول قتيلة ترثى النضر أخاها لا تخلى رثاءها له من ذكر مثواه الذى ثوى فيه ، بل لقد أقامت من المثوى مندوبا إلى جانب مندوبها الذى تبكيه ، فتقول :

يا راكباً إن الأثيل مظنة
من صبح خامسة وأنت موفق
بلّغ به ميتاً بانَّ تحيةً
ما إن تزال بها الركائب تخفق

وإذا ذكرت قول قتيلة ذكرت معه قول ابن بشير يرثى سليمان بن الحصين حيث يقول :

ألا أيها الباكى أخاه وإنما
تفرق يوم الفدفد الأخوان

أخى يوم أحجار الثُّمام بكَيته
ولو حُمّ يومى قبله لبكانى
تداعت به أيامه فاخترمْنه
وأبقين لى شجواً بكلُ مكان
فليت الذى ينعَي سليمان غُدوة
دعا عند قبرى مثلَها فنعانى

وحين رثى حارثة بن بدر الغدانى زياد بن أبى سفيان لم ينس مثواه بالثوية حيث دفن فقال :

صلّى الإله على قبر وطهره عند الثوية يسفى فوقه المور

وكذلك كان شأن ابن قيس الرقيات مع طلحة الطلحات ، حين أدركه بسجستان الممات :

نضّر الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

وما أنسى متمم بن نويرة وهو يرثى أخاه مالكا أن يذكر مثواه وكان قريباً من جبل شارع ، ويستسقى له فيقول :

سقى الله أرضا حلها قبر مالك
ذهاب العوادى المدجنات فأمرعا
وآثر سيل الواديين بديمة
ترشح وسميا من النبث خروعا

فمعرج الأجناب من حول شارع
فروى جنات القريتين فضلفعا

وما بنا أن ننسى قول امرىء القيس فى ابنة من بنات الملوك ماتت فدفنت إلى جوار جبل عسيب :

أجارتنا ، إن المزار قريب وإنى مُقيم ما أقام عسيب
أجارتنا ، إنا مقيمان هاهنا وكل غريب للغريب نَسيب

فهذا رثاء لم يخل من ذكر المكان ، وكما ذكر المرثى ذكر مثواه .

* * *

وهكذا عاش هذا العربى وفياً لذاك المهد والمراح كل الوفاء ، لا يفتا يذكر اسمه فى لهوه وجده ، فإذا أنشد فى غرامه ذكر اثنتين : محبوبةً صافاها وده ، ومَربعاً رتع هو وإياها على مهده . وإذا قال فى كفاحه حيث لا يذكر المكافح إلا بلاءه لم ينس أن يرفع لذلك المكان الذى جال عليه وصال ذكرا ، وإذا وارى الثرى حبيباً أو قريباً عز عليه أن يندبه دون أن يخلد اسم المكان الذى ضم جسمه إلى جانب اسمه ، وإذا أبعد عن مكانه وطوحت به نوى هاجه الحنين إليه وإلى أهل وجيرة كان بهم عزه ونصره . فقال :

ألا هل إلى أجبال صبح بذى الغضا
غضا الأثل من قبل الممات مَعاد

بلاد بها كُنّا وكُنّا نحبها
إذ الأهل أهل والبلاد بلاد

* * *

ثم جرى الزمان بهؤلاء القوم من خشونة إلى رفاهية ، ومن بداوة إلى حضارة ، واستقرت الأرض تحت أقدامهم ، وغدوا على أرضهم لا يبرحون ! وإذا الوطن مرسوم بعد أن كان غير مرسوم ، وإذا هو شىء بعينه بعد أن كان شيئاً بمعناه .

وعلى قدر تلك الأسباب التى وصلت ذاك العربى بمقامه كانت صلته بذلك المقام ، وكان أدبه بعد ذلك موصولا بتلك الصلات ينطق عنها ويعبر ، فلقد ذكر ذاك المقام مراحا للهواه ومسرحا لفُتوته ، ومثوى لفقيد عزيز ، إن بعد عنه ذكره لواحدة من هذه أو ذكره لها كلها .

ولقد كان وطن ذلك العربى فى تلك الخيام المنصوبة أكثر مما هو فى تلك الأرض المضروبة عليها ، فأحس وجوده فى وجود تلك الخيام بما تضم ، إن أقامت أقام معها وإن رفعت ارتفع معها ، لم تختلف الخيام ولم يختلف أهل الخيام ، واختلفت تحت قدميه الأرض ، لم تتعدد الخيام ولم يتعدد أهل الخيام وإنما

تعددت الأرض ، من أجل ذلك ذكر الأرض المختلفة المتعددة بتلك الصلات غير المختلفة غير المتعددة ، وجعل من تلك الأشياء الثابتة أسباباً لذكر ذلك الشيء المتغير ، ولكنه على كل حال أحب الأرض كما أحب الأهل ، وكما ذكر الأهل ذكر الأرض ، وما أنسىَ بغير المتغير متغيرا ، لأن ذاك الوطن على تغيره أحس أنه أفاد منه شيئاً من وجوده ، وراح على ثراه واستراح ، فكان لا يفتأ برعى ذلك كله ويذكره ولا ينساه . فطرة الله التى فطر الناس عليها لا يزالون يعيشون موصولين بأرضهم تزيد صلتهم بها تلك الأسباب إن كثرت ، وتوهن صلتهم بها تلك الأسباب إن قلت . وحين كاد ذلك العربى أن يتحضر كثرت تلك الأسباب ، فوصلته بوطنه اتصالا قويا جديدا .

ولقد استطاع هؤلاء الأدباء أن يخلّفوا لنا بذلك تُراثا أى تراث حول البلدان كان مادة للناظرين فيما يتصل بها ، وكان من أجلّ ما اعتمدوا عليه فى ذلك هو هذا الأدب الخالد ، فمعاجم البلدان إن أنعمت فيها النظر وجدت أدب هؤلاء الأدباء يكاد يملى الكثير من أخبار البلدان ويخلّدها ، فكم من بلد لولا الشعر خلّده ما خلد ، ولولا الشعر ميزه ما انماز ، ولولا الشعر ذكره ما عُرف ولا استبان .

فلقد كان من هؤلاء الأعراب — كما رأيت — من يستجيب لهذا الإزعاج القاسى الملح فيرحل عن أرضه على مضض ينتجع ويطلب الكلأ ، وهو مع ذلك لا يذكر أن أرضه قست عليه فينساها بل يذكر أنها مقسوّ عليها معه فيأسى لها ويرعى لها أيامه بها ، كما كان منهم من يستمسكون بأرضهم لا يبرحونها منتجعين ، يعدون هذا من فضل الرجل وكرمه ، تتسع صدورهم لها مع الجدب كما اتسع صدرها لهم مع الخصب ، وكذلك كانت تفعل قريش ، وفى ذلك يقول الحارث بن ظالم :

رفعت الرمح إذ قالوا قريش وشبّهت الشمائل والقبابا
ولو أنى أطاوع كنت فيهم وما سيّرت أتبع السحابا

وكان هؤلاء المقيمون من العرب يجعلون من إقامتهم تلك حفاظاً على العهد وصبراً على مالا يقوى عليه غير حسيب شريف ، ويسمون ديارهم ديار الحفاظ يقيمون فيها لغوث الملهوف وصلة المسكين وعون ابن السبيل . وفى ذلك يقول الحادرة :

ونقيم فى دار الحفاظ بيوتنا   زمنا ويظعن غيرنا للأمرع
ومحل مجد لا يسرّح أهله   يوم الإقامة والحلول لمرتع

يعنى أن أهله يقيمون فى دار الحفاظ التى لا يقيم فيها إلا من حافظ على حسبه وصبر على مالا يُصبر عليه، إذ لا يحافظ على حسبه إلا الشريف، ولا يرحلون لطلب الكلأ والخصب ويقيمون فى محل مجد حيث الشبع منتقص غير موفور — من مجدت الإبل: إذا أكلت نصف الشبع — لا يرحلون فى طلب الخصب تاركين مواطنهم .

غير أن الأوطان يجتذب المر   ء إليها الهوى وإن عاش كدّا

وهكذا كان الوطن عزيزا على العربى عزة نفسه عليه، وكان إذا غزا أو سافر حمل معه من تربة بلده رملا وعَفَراً يستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع ويطرحه فى الماء إذا شربه؛ وفى ذلك يقول شاعرهم :

نسير على علم بُكنه مسيرنا   بعفّة زاد فى بطون المزاود
ولا بد فى أسفارنا من قَبيصة   من الترب نُسقاها لحب الموالد

فهو إلى جانب مايحمل من عُفة زاد، أى قليل منه، يحمل قبيصة من التراب، أى قدر ما تمسكه أطراف أصابعه، يخلطها بالماء إذا شرب. يريد أن يجعل الماء الذى يقع عليه فى الغربة

أقرب إلى مائه بعد أن ضَمن غذاءه . وهكذا كان يحرص العربى أن يعيش بطعامه ومائه أنى ارتحل لا يريد أن يدخل على جسمه طعام غريب وماء غريب .

ويحكون أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يرسل خيله فجاء أعرابى بفرس له أنثى وسأله أن يدخلها مع خيله . فقال الوليد لقَهرمانه ، وكان اسمه أسيلم بن الأحنف : كيف تراها يا أسيلم ؟ فقال: يا أمير المؤمنين ، حجازية، لوضمها مضمارك ذهبتْ .فقال الأعرابى للقهرمان : أنت والله منقوص الاسم — يعنى أسيلم لاأسلم ـ أعوج اسم الأب ـ يعنى أن أباه اسمه الأحنف ، والأحنف من برجله اعوجاج — فأمر الوليد بإدخال فرسه. فقال الوليد : أواهبها لى أنت يا أعرابى ؟ فقال : لا والله إنها لقديمة الصحبة ولها حق ، ولكن أحملك على مهر لها سبق عاما أول وهو رابض . فضحك الوالد وقال: أعرابى مجنون . فقال : وما يضحككم ؟ سبقت أمه عاما أول وهو فى بطنها . فاستظرفه الوليد واحتبسه عنده ، فمرض ، فبعث إليه الوليد بالأطباء ، فأنشأ يقول :

جاء الأطباء من حِمص تخالهمُ ... من جهلهم أن أُداوى كالمجانين
قال الأطباء مايشفيك قلت لهم ... دُخان رِمث من التسرير يشفينى

إنى أحن إلى أدخان مُحتطب   من الجنينة جَزْل غير موزون

أرأيت إلى حنين هذ العربى إلى موطنه لا يرى دواءه فى غير دخان شجر من الحمض وينبت فى أرضه التسرير والجنينة ! ولم يصرفه عن حنينه إلى هذا الوطن البادى وجوده عند الخليفة فى بلد أريف وأخصب .

وما أبعد ابن الفارض حين قال :

وإذا أذَى ألَم ٍ ألَمَّ بمُهجتى   فشذا أعيشاب الحجاز دوائى

كما لم يُبعد الأحوص عن هذا حين قال :

يا موقد النـار بالعَلياء من إضم
أوقد فقد هِجْت شوقاً غير مضطرم
يا موقد النار أوقدها فإن لها
سناً يهيج فُؤاد العاشق السَّدم
نار يضىء سناها أو تُشب لنا
سعدية وبها نُشفى من السَّقَم

ويروى أن المتأدب من البرامكة المتفلسف منهم كان إذا سافر أخذ معه من تُربة مولده فى جراب يتداوى به .

ويروون أن عمار بن عباد حين ولى الرقة مرض فما كاد ينجع فيه دواء فقال له طبيبه سببه الهواء . فبعث إلى بغداد

فحمل الهواء في جُرُب ، فكان يفتح كل يوم في وجهه جراب إلى أن برىء .

لا ندرى مبلغ ذلك من العلم الحق . ولكن الناس كانوا ولا يزالون يعزون الكثير إلى ما يتصل بالبيئة التى نشأ فيها الإنسان . وما كان يفعله العرب فى ذلك كان يفعله غير العرب ويقولون به .

فإنه يعزى إلى جالينوس أنه قال : يتروح العليل بنسيم أهله كما تتقوّت الحبة ببل المطر إذا أصاب الأرض .

كما يعزى إلى بقراط أنه قال : غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها .

وكذلك يعزى إليه قوله : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها وتنزع إلى غذائها .

ولبعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن .

ولأصحاب القيافة : إذا أحست النفس بمولدها تفتحت مسامها فعرفت النسيم .

ويروون للبديع أبى فراس السلمى الدمشقى طراد بن على ابن عبد العزيز أبياتا منها :

يا نسيما هب مسكا عبقاً   هذه أنفاس ريا جلقا

وأن هذه الأبيات اشتهرت وغنى بها المغنون . ومر بعضهم

يوما بشوارع القاهرة وقد ظهرت جمال كثيرة وعليها حمولة من تفاح الشام فعبقت روائح تلك الحمول فأكثر التلفت ، وكانت أمامه امرأة سائرة ففطنت لما داخله من الإعجاب من تلك الرائحة فأومات إليه وقالت هذه أنفاس ريا جلقا .

وما أصدق تلك البدوية التى نزحت عن دارها حين تقول :

خليلى من سكان ما وإن هاجنى
هبوب جنوب مرها ونسامها
فلا تسالانى ما ورائى فإننى
بمنزلة أعيا الطبيب سقامها

ويحكى الحافظ اليغمورى أن الأمتعة الثمينة والذخائر النفيسة كانت تأتى إلى مصر لتباع فلا ينظر إليها يوسف عليه السلام . فإذا جاءت أحمال صوف من كنعان لا تحل إلا بين يديه .

وما أقرب من هذا قول أبى محجن الثقفى :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى
أخاف إذ ما مت ألا أذوقها

وتروى بخمر الحص لحدى فإننى
أسير لها من بعدما قد أسوقها

الحص : موضع قريب من حمص .

وعلى هذا عاش الناس قديما ، فيحكون أن أسفنديار ابن بشتاسف بن لهراسف لما غزا بلاد الخزر ليستنقذ أخته من الأسر اعتل بها ، فقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : شمة من تربة بلخ وشربة من ماء واديها .

وكذلك يحكون أن سابور ذا الأكتاف لما اعتل ببلاد الروم وكان مأسوراً سُئل : ما تشتهى ؟ فقال : شربة من ماء دجلة وشمة من تربة اصطخر فيقال : إنه أتى بشربة من ذاك الماء وشمة من ذاك التراب فشرب هذا واشتم ذاك فشفي .

وقديما كان الملوك الغازون الذين لم يفتقدوا فى اغترابهم نعمة ، ولم تفتهم فى أسفارهم شهوة ، يحنون إلى أوطانهم ، لا يؤثرون على ترابهم ومساقط رؤوسهم شيئا من الأقاليم المغزوة والبلدان المغتصبة . وكانوا إذا ما أحسوا الموت أوصوا بأن تنقل رفاتهم إلى حيث ولدوا ونشئوا ، فحين مرض الإسكندر ببابل وأشفى على الموت أمر حكماءه ووزراءه بأن يُحمل رمته فى تابوت من ذهب إلى بلده ليوارى فى ترابها .

وحين أدركت الوفاة وَهْرِز بن شِيرزاد عامل كسرى على اليمن ، وكان قد فتحها وغلب عليها ملك الحبشة ، أوصى ابنه بأن يحمل ناووسه إلى اصطخر ليدفن هناك .

وكذلك فعل يوسف عليه السلام لما أدركته الوفاة فقد أوصى بأن تحمل جُثته إلى حيث مقابر أبيه وأجداده يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام بالشام .

ويروى المؤرخون أن أهل مصر منعوا أولياء يوسف من حمل جثته ، وحين بُعث موسى عليه السلام وهلك فرعون على يديه حمل جثة يوسف إلى حيث أراد أن يُدفن .

وما أبعد ابن دارة عن ذلك حين قال :

خليلىّ إن حانت بحمص منيتى
فلا تدفنانى وارفعانى إلى نجد
ومُرا على أهل الجناب بأعظُمى
وإن لم يكن أهل الجناب على القَصد
وإن أنتما لم ترَفعانى فسلِّما
على صارة فالقور فالأبرق الفرد

إيثار من الناس لبلادهم ، وكما خُلق الناس خُلق العرب ، وكما أغرم الناس ببلادهم وآثروها أغرم العرب ببلادهم وآثروها ،

وكان إيثار العرب لبلادهم أبلغ وأصدق ، فليس بغريب على من أنبته الله على أرض اجتمع له على سطحها ماء جار وظل وارف ، ألا يؤثر عليها ، وإنما الغريب على من يُنبته الله على أرض ترابها رمال ، وماؤها سراب ، وطيرها جراد ، ثم لا يؤثر عليها ويؤثرها على جنات وعيون .

وهكذا خلق الله العرب أقنع بأوطانهم منهم بأرزاقهم . وعن ابن عباس أنه قال : لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى عبد الرزق .

ثم استمع إلى هذا الأعرابي يرغّب زوجته في سكنى البيداء على ما فيها فيقول :

أتجلين في الجالين أم تَتصبَّري
على ضِيق عيش والكريم صَبُور
فبالمصر بُرغوث وحُمَّى وحَصبة
ومُوم وطاعون وكل شُرور

للموم : الحمى معها هذيان .

وبالبيد جُوع لا يزال كأنه
رُكام بأطراف الإكام تمور

فجعل صبرها على سكنى البادية من فعل الكرام ، وحين أخذ

يضاهي بادية بحاضرة كشفت مضاهاته عما يؤثر .

وسئل أعرابي اعتل وكان قد نزح إلى الحاضرة : ماتشتهي ؟ فقال حِسل فلاة — يريد ضبا وليدا — وحسْوقلات ، أي تلك القطرات من الماء التي تجتمع في نُقَر الجبال .

وسئل آخر عما يشتهي ؟ فقال : مَخْضًا رويّا وضَبامشويّا.

وزادوا فرووا لآخر في مثله سُئل عما يشتهي فقال : ضبا عنيناً أعور .

لا تصدق معي أن هذا كله وقع ، ولكن صدق معي أن هذا ومثله يشير إلى ما كانت تحمله نفوس العرب من إيثار لأوطانها على جدبها وعسرها .

وأبلغ ما يروونه في ذلك ما يحكونه عن أعرابي قيل له : كيف تصنع في البادية ، إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله ؟ قال: وهل العيش إلا ذاك ، يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا ، ثم ينصب عصاه ويُلْقي عليها كساءه ويجلس في فَيئه يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى .

أرأيت إلى الإيثار كيف يخلق الرضى ، ثم أرأيت إلى الرضى كيف يصور من البؤس نعيما .

وما أحرصني بعد هذا على أن أسوق إليك مثلها تَزيدك علما

بما كان عليه العربى من إيثار ، عن إيمان بحب الأوطان .

قالوا : سُئل أعرابى من بنى أسد : من أين أقبلت ؟ قال : من هذه البادية . فقيل له : وأين تسكن منها ؟ قال : مساقط الحمى ، حمى ضرية ـ ضرية : بئر بأرض نجد ـ بأرض لعمرو والله ما نريد بها بدلا ولا نبغى عنها حِولا ، قد نفحتها الغدوات ، وحفّتها الفلوات ، فلا يملوح ماؤها ، ولا يحمَى ترابها ، ولا يَمعر جنابها — أى يقل نباتها — ليس فيها أذى ولا قذى ولا مُوم ولا حمى ، فنحن بأرفه عيش وأرتع نعمة . فقيل له : فما طعامكم فيها ؟ فقال : بخ بخ عيشنا والله عيش يعلّل جاذبه ، وطعامنا والله أطيب طعام وأهنؤه وأمرؤه : الهَبيد — الحنظل — والضباب واليرابيع والقنافذ والحيّات ، وربما والله أكلنا القد — جلد السخلة وكانوا يأكلونه فى الجدب — واشتوينا الجلد ، فلم نعلم أحدا أخصبَ منا عيشاً . فالحمد لله على ما بسط من السعة ورَزق من الدعة ، أو ما سمعت قول قائلنا وكان والله عالماً بلذيذ العيش :

إذا ما أصبنا كُل يوم مُذيقة   وخمس تُميرات صغار كوانز

(المذيقة : تصغير مذقة ، وهى اللبن قد مزج بالماء) .

فنحن ملوك الأرض خصبا ونعمة
ونحن أسود الغاب عند المزاهز
وكم مُتمنٍّ عيشنا لا ينـاله
ولو ناله أضحى به جـد فائز

بهذه النظرة الراضية نظر العربى لما بين يديه لا يؤثر عليه شيئاً ويؤثره على ما سواه . يروون عن هذا الإيثار ذاك الحديث الذى قد يبدو مصنوعاً شيئا ، ولكنه على كل حال يدل على باطن أمره ، وذاك الذى رووه فيه غلـّو ، يسانده مثله مما لا يحمل غُلوا ، فلقد رووا عن عبد الله بن إسحاق الجعفرى أنه قال : أمرتُ بصهريج لى فى بستان عليه نخل يُظل أن يُملأ . فذهبت بأم حسانة المُرّية وابنتها ، وهى زوجتى . فلما نظرت أم حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت رجليها فى الماء . فقلت لها : ألا تطوفين معنا على هذا النخل لتجنى ما طاب من ثمره ؟ فقالت : هاهنا أعجب إلىّ . فدُرنا ساعة وتركناها ثم انصرفنا وهى تخضخض رجليها فى الماء وتحرك شفتيها . فقلت : يا أم حسانة ، لا أحسبك إلا قد قلت شعرا ؟ قالت : أجل ، ثم أنشدتنى :

أقول لأدنى صاحبىّ أُسره
وللعين دمع يحدر الكحل ساكبه

لعمرى لِنَهىٌ باللوى نازح القَذى
نقىّ النواحى غير طَرق مشاربه

(النهى : الغدير — والطرق : الذى بالت فيه الدواب) .

بأجرع مجراع كأن رجاجه
سخاب من الكافور والمسك شائبُه

السخاب : القلادة .

أحبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئت
للعب فلم تملُح لدىّ ملاعبه

فياحبذا نجد وطيبُ ترابه
إذا هضبته بالعشى هواضبه

هضبته : مطرته مطرا شديدا .

وريح صبا نجد إذا ماتنسّمت
ضُحى أو سرت جنح الظلام جنائبه

الجنائب : جمع جنوب ، وهى ريح تقابل الشمال .

فأقسم لا أنساه ما دمت حيّة وما دام ليل عن نهار يعاقبه
ولازال هذا القلب مسْتى لوعة بذكراه حتى يترك الماء شاربه

ونحو من ذاك هذا الذى رووه لنائلة بنت الفُرافصة الكلبية لما حُملت إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه زوجة ،

فخرجت عن البادية إلى المدينة وخرجت من غلظة البادين إلى لين الحاضرين ، ومن حياة عامة إلى حياة خاصة ، أمور كلها تغرى ولكنها لم تغر نائلة ، فإذا هى قبل أن تأنس بعثمان كارهة ، وإذا هى تقول لضب أخيها :

ألست ترى يا ضب بالله أننى
مرافقة نحو المدينة أركبا
أما كان فى أولاد عوف بن عامر
لك الويل ما يغنى الخباء المطنبا
أبى الله إلا أن أكون غريبة
بيثرب لا أما لدىّ ولا أبا

وما أبلغ قولَ الأعرابى وأصدقه :

وكنا ألفناها ولم تك مألفا
وقد يؤلف الشىء الذى ليس بالحسن
كما تؤلف الأرض التى لم يطب بها
هواء ولا ماء ولكنها وطن

— ٥ —

وهكذا كان شوق العربى إلى بلده حين يخرج عنه ، فإذا هو مُدلَّه به وكأنما هو مدلَّه بمحبوبته ، بل هو فى هذا أصدق، أعنى فى حبه لوطنه . فقد يَجد الرجل مع كل مُنقلب ما يسلو بها عن فاتنته ، ولكنه لن يجد أرضاً أخرى تُنسيه بيئته ، فإذا هو لهج بوطنه فى غُربته لهف إلى أوبته يذكر دُروجه على أرضه، ومراتع صباه ، ومغانى لهوه ، ومجالس أنسه ، ومسارح فتوته ، وفيما بين هذا وذاك أهله وعشيرته .

وفى الأثر : حب الوطن من الإيمان .

وقال الأصمعى : دخلت البادية فنزلت على بعض الأعراب فقلت : أفدنى ، قال : إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل وحسن عهده وكرم أخلاقه وطهارة مولده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه .

وقيل لأعرابى : أتشتاق إلى وطنك ؟ قال : كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين رُكامها ورضيع غمامها .

وروى أن أبان قدم على رسول الله ﷺ المدينة : فقال له : يا أبان ، كيف تركت مكة ؟ قال : تركت الإذخر وقد أغدق ، وتركت الثمام وقد خاص . فاغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : دع القلوب فى أماكنها .

ويحكون أن الرشيد فى خَرجة له حمل أخته عُلية معه فلما صارت بالمرج — مرج القلعة — اشتاقت إلى بغداد فكتبت على فُسطاط أخيها :

ومُغترب بالمرج يبكى لشَجوه
وقد غاب عنه المسعدون على الحُب
إذا ما تراءى الركب من نحو أرضه
تنشق يَستشفى برائحة الركب

فلما وقع الرشيد على الشعر قال : حنت عُلية إلى الوطن . وأمر بالرجوع إلى بغداد .

ويحكى الأصمعى يقول : غنت حبابة ليزيد بن عبد الملك ، وكانت جاريته ، وكانت من أحسن الناس وجها ومسموعا ، وكان شديد الكلف بها ، وكان منشؤها المدينة :

لعمرك إننى لأحب سلعا لرؤيتها ومن أكناف سلع

سلع : جبل بالمدينة

تقر بقربه عيني وإنى لأخشى أن تكون تريدفجعي
حلفت برب مكة والمصلى وأيدى السابحات غداة جمع
لأنت على التنائى فاعلميه أحب إلى من بصرى وسمعى

ثم تنفست الصعداء . فقال لها : لم تنفسين ، والله لو أردته لقلعته إليك حجرا حجراً ؟ فقالت : إنما أردته بسا كنيه .

وكان عبدالله بن الزبير قد نفى من المدينة من كان بهامن بنى أمية،وكان فيهم أبو قطيفة الشاعر، فلما نزل الشام حن إلى وطنه ، فقال يتشوق :

ليت شعرى وأين منى ليت أعنى العهد يلبن فبرام

يلبن وبرام : مكانان

أم كعهدى العقيق أم غيرته بعدى الحادثات والأيام
وبقومى بدلت لخما وعكا وجذاما وأين منى جذام
وتبدلت من مسا كن قومى والقصور التى بها الآطام
كل قصر مشيدذى أواس يتغنى على ذراه الحمام
أقر منى السلام إن جئت قومي وقليل لهم لدى السلام
أقطع الليل كله با كتئاب وزفير فما أكاد أنام
ولقدحان أن يكون لهذا البعد عنا تباعد وانصرام

فبلغت هذه الأبيات عبدالله بن الزبيرفقال : حن أبو قطيفة ، ألا من رآه فليبلغه عنى أنى قد أمنته فليرجع .

ومثل عبدالله بن الزبير يعرف حنين الرجل إلى وطنه ، ومثله يعرف عذاب القلوب بهذا الحنين .

وما أحن الأحوص حين يقول :

أقول بعمّـان وهل طربى به ... إلى أهل سلع إن تشوقت نافع
أصاح ألم يحزنك ريح مريضة ... وبرق تلالا بالعقيقين لامع
وإن غريب الدار مما يشوقه ... نسيم الرياح والبروق اللوامع
وكيف اشتياق المرء يبكى صبابة ... إلى من نأى عن داره وهو طامع
أريد لأنسى ذكرها فيشوقنى ... رفاق إلى أرض الحجاز رواجع

وحتى الجفاة الذين خلت قلوبهم من كل عاطفة حانية لم يبرءوا من هذا الحنين إلى الوطن . يحكون أن والى اليمامة وقع على أعرابى كان يقطع الطريق فأخذه فحبسه ، فإذا الحبس يحرك فيه حنينه إلى وطنه وإذا هو يقول :

أقول لبوابىّ والسجن مُغلق
وقد لاح برق ما الذى تَريان
فقالا نرى برقا يلوح وما الذى
يشوقك من برق يلوح يمانِ
فقلت افتحا لى الباب أنظُر ساعة
لعلّى أرى البرق الذى تَريان

فقالا أمرنا بالوثاق وما لنا
بمعصية السلطان فيك يدان
فلا تحسبا سجن اليمامة دائما
كما لم يدم عيش لنا بأبان
(أبان : مكان).

ويذكرون للخطيم العكلي وهو من لصوص العرب نحوا من هذا ، فيروون له هذا الشعر الذى يحن فيه إلى موطنه بُلى ، وإلى أهله فى بلى ، إذ يقول .

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بأعلى بُلىّ ذى السلام وذى السدر
وهل أهبطن روض القطا غير خائف
وهل أصبحنّ الدهر وسط بنى صخر
وهل أسمعنْ يوما بكاء حمامة
تنادى حماما فى ذرى قصب خضر
وهل أرين يوما جيادى أقودها
بذات الشقوق أو بأنقائها العُفر

فلقد جعل مناه فى أن يتوب ، وجعل توبته فى أن يؤوب ، وجعل مآبه إلى وطنه وأهله ليثوب . وهكذا كان الوطن كعبة المارقين عندها تترك الذنوب .

وانظر إلى أثر هذا الحنين فى قلب ابن الخطيب حين رحل أو أبعد عن بلده فإذا هو يقول :

إنه لما قضى الله الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو ردّ ، ولا محيد عما شاء سواء كره ذلك المرء أو ودّ ، برحلتى من بلادى ، ونُقلتى عن محل طارفى وتلادى :

قُطر كأن نسيمه نفحات كافور ومسك
وكأن زهر رياضه دُر هوى من نَظم سلك

تاركا المنصب والأهل ، والوطن والإلف :

بلد طالب لى به الأنس حينا وصفا العَوْد فيه والإبداء
فسقت عهده العهادُ وروّت منه تلك النوادىَ الأنداء

محل فتح الكمائم ، ومسقط الرأس وقطع التمائم :

به كان الشباب اللدن غضًّا ودهرى كُله زمنَ الربيع
ففرّق بيننا زمنٌ خَؤون له شَغف بتفريق الجميع

لم أنس تلك النواسم ، التى أيامها للعمر مواسم ، وثغورها بالسرور بواسم :

ولنا بهاتيك الديّار مواسم كانت تقام لطيبها الأسواق
فأبانا عنها الزمان بسُرعة وغدت تعلّلنا بها الأشواق

ومضى يطيل إلى أن يقول : وكأنى بعاتب يقول : ما هذا

التطويل ؟ فأقول له : جوابى قول ابن أبى الإصبع الذى عليه التعويل :

أكثرت عذلى كأنّى كنت أول من
بكى على مَسْكن أوحَنّ للسكَن
لا تَلْحَ إنّ من الإيمان عند ذوى الـ
إيمان منّا حنينَ النفس للوطن

وهو على هذا يختم حنينه — إن صح أن الحنين يُختم — بما يرى فيه سلوى فيقول :

لئن أُزعجت عنك بغير قَصد فقبلى فارق الفردوس آدم

أرأيت إلى الكلمات كيف تفيض حسرات ، وإلى الأفئدة كيف تفيض موجدة ، وإلى القلوب كيف كلمتها الندوب ، ذاك هو الوطن فلا تستكثر على الناس كلفهم به ، ولا تستكثر عليهم حزنهم لفراقه .

ويحكى ياقوت أنه وجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوبا :

فهل نحو بغداد مزارٌ فيلتقى
مَشُوق ويحظى بالزيارة زائر
إلى الله أشكو لا إلى الناس إنه
على كشف ما ألقى من الهم قادر

وهل ترى كتبهما إلا مشوق قعد به المسعى ، فنفّس عما يهوى .

وما أصدق أشجع بن عمرو السلمى حين ذكر تشوقه إلى الحجاز وحنينه ، وذلك حين قال :

أحنّ إلى الحجاز وساكنيه حنينَ الإلف فارقه القرين

وأبكى حين ترقُد كلُّ عين بكاء بين زَفرته أنين

فأعذر من رأيت على بكاء غريب عن أحبته حزين

ويحكون أن ابن المولى ترك المدينة يريد الإقامة بالعراق ، فإذا هو بعد حين يحن ويشتاق ، وإذا هو ينشد فى ذاك الفراق:

وطربتُ إذ ذكر المدينة ذاكر
يوم الخميس فهاج لى بَلبالا

فَظللتُ أنظر فى السماء كأننى
أبغى بناحية السماء هلالا

طرباً إلى أهل الحجاز وتارة
أبكى بدَمع مُسبل إسبالا

ويروى أبو الفرج الأصبهانى وهو يذكر موت الصمة القشيرى بطبرستان ، وكان قد خرج فى عسكر المسلمين لغزو الديلم ، يقول : فحكى رجل من أهل طبرستان قال : بينا أنا

أمشى فى ضيعة لى فيها ألوان من الفاكهة والزعفران وغير ذلك من الأشجار ، وإذا بإنسان فى البستان مطروح عليه أثواب خُلقان ، فدنوت منه فإذا هو لا يتحرك ولا يتكلم ، فأصغيت إليه فإذا هو يقول بصوت خفي :

تعز بصبر لا وجدك لا ترى
بشام الحمى أخرى الليالى الغوابر

البشام : شجر طيب الريح والطعم يستاك به .

كأن فؤادى من تذكره الحمى
وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

فما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت نفسه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الصمة بن عبد الله القشيرى .

أرأيت إلى آخر ما يخرج عليه من دنياه الإنسان ، وأنه هو ذكر الأوطان .

وروى الفتح بن خاقان يقول : ورد علىّ أعرابى من البادية نجدى فصيح ، فبات ليلة عندى على سطح مُشرف على بستان ، فسمع فيه صوت الدواليب . فقال : ما أشبه هذا إلا بحنين الإبل ، وأنشد :

بكرت تحنّ وما بها وَجدى وأحنّ من شوقٍ إلى نجدِ

فدموعها تحيا الرياضُ بها ودموع عيني أحرقت خدى

وهكذا قاس النجدى ما سمع بما أحس ، لأن ما يحس قد ملأ عليه النفس .

ويقول بعض الحكماء : الحنين من رقة القلب ، ورقة القلب من الرعاية ، والرعاية من الرحمة ، والرحمة من كرم الفطرة ، وكرم الفطرة من طهارة الرشدة ، وطهارة الرشدة من كرم المحتد . يعنى الوطن .

ومما يحفظ فى هذا :

الكريم يحن إلى جنابه ، كما يحن الأسد إلى غابه .

تربة الصبا تغرس فى القلب حرمة وحلاوة كما تغرس الولادة فى القلب رقة وحفاوة .

أحق البلدان بنزوعك إليه بلد أمصّك حلب رضاعه .

إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره ، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه .

أرض الرجل ظئره ، وداره مهده .

يحن اللبيب إلى وطنه كما يحن النجيب إلى عطنه . (النجيب : القوى من الإبل) .

وينشدون لامرأة من أبان تزوجت فى كلب فاستمعت يوما إلى ناقتها تحن ، فذكرت بلادها وقالت :

ألا أيها البكر الأبانى إننى
وإياك فى كَلْب لمُغتربان
تحن وأبكى ذا الهوى لصبابة
وإنّا على البلوى لمُصطحبان
وإن زمانا أيها البَكر ضمّنى
وإياك فى كلب لشَر زمان

وشعر الحنين كثير يحكى بعضه بعضاً ، إلا أنه على هذا جدير بأن نقرأ منه طرفاً ، فهاك بعضه :

ألا يا حبذا وطنى وأهلى وصَحبي حين يذّكر الصحاب
وما عسل ببارد ماء مُزن على ظمأ لشاربه يُشاب
بأشهى من لقائكمُ إلينا فكيف لنا به ومتى الإياب

ويقول الطائى :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ولبعض الشعراء :

ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة إلى قرقَرى قبل الممات سبيل
فأشرب من ماء الُحجيلاء شربة يداوى بها قبل الممات عليل

(الحجيلاء : بئر باليمامة)

فيا أثلاث القاع قلبي موكّل
بكن وجدوى خيركن قليل

ويا أثلاث القاع قد ملّ صحبتي
مسيري فهل في ظلكن مقيل

أريد انحدارا نحوها فيردني
ويمنعني دينٌ عليّ ثقيل

أحدّث نفسي عنك أن لستُ راجعاً
إليك فحُزني في الفؤاد دخيل

وينشدون لمجنون بني عامر :

إلى عامر أصبو وما أرض عامر
هي الرملة الوعساء والبلد الرحب

معاشر بيض لو وردتَ بلادهم
وردت بحوراً ماؤها للندى عذب

إذا ما بدت للناظرين خيامهم
فثم العتاق القبُّ والأسل القُضب

(العتاق : كرام الخيل . والقب : الضامرة . والأسل : الرماح . والقضب : الدقاق) .

ولبعض الشعراء :

وخبرها الوُرّاد أن ليس بينها
وبين قُرى نجران والدَّرب صافر
فألقت عَصاها واستقر بها النَّوى
كما قَرَّ عينا بالإياب المُسافر

ويقول المولى :

سُررت بجعفر والقُرب منه كما سُر المُسافر بالإياب
كمَمطور ببلدته فأضحى غنيا عن مطالعة السحاب

ويقول امرؤ القيس :

وقد طَوَّفت فى الآفاق حتى رضيتُ من السلامة بالإياب

وفى مثله يقول البحترى :

وكان رجائى أن أؤوب مُملَّكا فصار رجائى أن أؤوب مسلما

وانظر إلى أبى تمام كيف صور الحنين إلى الأوطان :

حن إلى الموت حتى ظنّ جاهله بأنه حَنّ مُشتاقاً إلى وطن

فهو يصور حنين الشجاع إلى الموت بحنين المشتاق إلى وطنه.

وكما كان شوق العربى لوطنه وحنينه إليه كان حُبه للزومه، وكانت كراهيته للنزوح عنه ، لم يسكت مع الشوق ومع الحنين أن يقول، وكذلك لم يسكت مع الحب والكراهية أن يقول ، فلقد قال

يحبب اللزوم إلى نفسه ويكّره إليها النزوح عن أرضه، وينفرها منه.

فقال : الغربة كربة ، والنُّقلة مثلة :

وقال : الغريب النائى عن بلده المتنحى عن أهله كالثور النادّ عن عطنه ، الذى هو لكل رام قنيصة .

وقال : الجالى عن مسقط رأسه ومحل رضاعه كالعير الناشط عن جماعته الذى هو لكل سَبُع قنيصة ولكل رام دريئة .

وقال : عُسرك فى دارك أعزلك من يسرك فى غربتك .

وقال : الغريب كالغرس الذى زايل أرضه ، وفقد شربه ، فهو ذاو لا يثمر ، وذابل لا ينضر .

وقال : لا تنهض عن وكرك فتنغصك الغربة وتضيمك الوحدة.

وقال : لا تجف أرضا بها قوابلك، ولا تشك بلدا فيه قبائلك.

وقال : إذا كنت فى غير أهلك فلا تنس نصيبك من الذل .

وقال : الغريب مثل اليتيم اللطيم الذى ثكل أبويه ، فلا أم ترأمه ، ولا أب يحدب عليه وقيل لبعضهم : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان ، والجلوس مع الإخوان . قيل له ما الذلة ؟ قال : التنقل فى البلاد ، والتنحى عن الأوطان .

وقال : الخروج من الوطن أحد السبابين ، والجلاء أحد القتلين .

وقيل لبعضهم : ما أصبرك على الغربة ؟ فقال : أنست بالنوائب حتى ما أعرف غيرها ، وغذيت بالمكاره فما أجد ضيرها .

وضربوا بالغريبة المثل فى الاحتراس والتحرز والحيطة فقالوا : أوضح من مرآة الغريبة يعنون أن المرأة إذا تزوجت فى غير أهلها وفى غير بلدها كان اعتمادها على مرآتها تجلوها دواما إذ ليست معها ناصحة تشير عليها .

وكما قال العربى فى ذلك نثرا قال شعراً .

يقول شاعرهم :

لقرب الدار فى الإقتار خير
من العيش المُوسَّع فى اغتراب

ويقول : ليس يستعذب الغريب مقاما
فى سوى أرضه وإن نال جدا

ويقول : لا ترغبوا إخوتى فى غُربة أبدا
إنّ الغريب ذليل حيثما كانا

ويقول : لعمرى لرهطُ المرء خيرٌ بقية
عليه وإن عالوا به كلُ مركب

إذا كنت فى قوم عِدًا لستُ منهمُ
فكُلْ ما عُلِفْتَ من خَبيثٍ وطيِّب

ويقول : ألا ليت شعرى والحوادثُ جمّة
متى تجمع الأيام يوماً لنا الشملا
وكُل غريب سوف يُمسى بذلّة
إذا بان عن أوطانه وجفا الأهلا

ويقول : وأنزلنى طُول النوى دار غربة
إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
فحامقته حتى يقال سَجية
ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله
ولو كنت فى قومى وجل عشيرتى
لألفيت فيهم كل خِرق أو اصله
(الخرق : الحسن الكريم) .

ويقول : طلب المعاش مُفرِّق
بين الأحبة والوطن
ومصيِّر جَلَد الرجا
ل إلى الضراعة والوَهن
حتى يقُاد كما يقا
د النِّضو فى ثِنى الرَّسن
ثُم المنية بعده
فكأنه ما لم يكن

ويقول : يقولان إن الهجر يشفي من الهوى
وماازددت الا ضعف ما بى على الهجر

ويقول : حسبتُ الخير يكثرُ فى التنائى
فكان الخير أكثر فى التدانى

ذكرتُ مقامنا بسراة حَزْوى
فسِرْت مع الوَساوس فى عِنان
إلا لله حَزم واصطبار
تقاسمه بُنيّات الزمان
عزيز أضمرته نَوى شَطون
فظل من المهانة فى ضمان
يناط إلى العزيز إذا تبدّى
بمنزل غربة طَرف الهوان

ويقول : ما من غريب وإن أبدى تجلّده
إلاّ تذكر عند الغُربة الوَطنا

ويقول : إن الغريب ولو يكون ببلدة
يُجبى إليه خراجها لغريب
وأقلّ ما يلقى الغريب من الأذى
أن يُستذل وقولُه مكذوب

ويقول : إن الغريب إذا ينادى مُوجَعا
عند الشدائد كان غيرَ مجاب
فإذا نظرت إلى الغريب فكُن به
مُتراحما لتباعد الأحباب

ويقول : غريب الدار ليس له صديق
جميع سؤاله : كيف الطريق
تعلّق بالسؤال بكُل شيء
كما يتعلّق الرجل الغريق
فلا تجزع فكل فتًى ستأتى
على حالاته سعة وضيق

ويقول : وإن اغتراب المرء من غير فاقة
ولا حاجة يسمو لها لَعجيب
لحسب الفتى نحساً وإن أدرك الغنى
ونال ثراء أن يقال غريب

ويقول : أىّ سرورٍ لعيش مغترب
فَرد وحيد ناء عن الوطن
لا تطمع النفس فى هواه ولا
يَكْحَل عيناً بمنظر حسن

ويقول : سل الله الإياب من المتغيب
فكم قد رد مثلك من غريب
وسلِّ الحزن عنك بحُسن ظن
ولا تياس من الفرج القريب

ويقول : إذا اغترب الكريم رأى أمورا
محجلّة يشيب لها الوليد

ويقول : لقد شفنى أنى أدور ببلدة
أخلاّى منها نازحون بعيد
أقلب طرفى فى البلاد فلا أرى
وجوه أخلاّى الذين أريد

— ٦ —

هذا الحب للوطن الذى سكن قلب العربى منذ دَب ، هو الذى هاج مشاعره ، وأيقظ وجدانه ، ثم حرك لسانه ليعبّر عن هذا كله تعبيراً متصلا ، يذكر مدرجه إلى أن حلت عنه تمائمه ، ويذكر مدبه حين كان صبياً يرتع إلى أن اخضر شاربه ، ويذكر مَسرحه يملى عليه حُبه لطينته حبّه لقرينته ليزيد الوجود موجوداً ، ويذكر مغداه ومراحه يسعى ويكد ، ومكرّه ومفرّه يناضل ويجد ، حتى إذا مانزح عن هذا كله لم يُبعد بلبه عنه ، يذكره مع النأى القريب مشتاقاً ، فإن أبعد به النأى حَن والتاع ، وإن انقطع به النأى جُن وهلع .

هذا الواجد المتصل جعل من حب هذا العربى لوطنه حميّة له ، أحبّه فرعاه ، وحمى له فتعلم أن يذود عنه . وهكذا الحب لا يكمل إلا إذا توفر له هذان الركنان من رعاية وحماية . ولقد يبدو أن ركنا واحداً يضمهما معنى واحد، وهو البذل، فالرعاية عن بذل، وكذا الحماية عن بذل ،ولكنهما على هذا يختلفان سَلماً

وحرباً ، ويختلفان تبعاً لهذا استعداداً ؛ إذ ليست النفوس كلها في البذل مع السلم والحرب سواء ، فمنها الرخوة الوادعة التي لا تضن سلما ، وإذا هي مع الحرب خوارة فرّارة لا تَبضُّ بقطرة ، ومنها الجلدة الصلدة التي لا تحس لها وُجوداً إلا مع الهيجاء وحين تحزب الأمور ، وهذه وتلك لا تُمليان عن حب كامل وإنما عن حب منقوص ، قد استقام له ركن دون ركن . ومنها نفوس تجمع إلى الوداعة الجلَدَ ، وإلى اللين الخشونة ، فإذا هي للحرب والسلم معاً ، وإذا هي بهذا وذاك قد اكتمل لها ركنا الحب تعرفه بلونيه أخذا وإعطاء .

ولقد اكتمل هذا الحب في قلب هذا العربي ، وتوفر له ركناه من رعاية وحماية . فإذا هو يعطي عن حُبه سَلما وحربا رعاية وحماية . ولقد دلنا على رعايته لوطنه بتلك الجوانب كلها التي سقناها لك وضربنا لها الأمثال ، وبقي أن ندُلك على حمايته لوطنه وأن نضرب لك الأمثال .

وتكاد تكون تلك الأمثلة التي سُقناها تصور رعايته تحمل شيئاً يُصور حمايته ، فهذه من تلك كما قلت لك يكاد يجمعهما سبب ، غير أن لهذا العربي الناطق بحنينه جانبا خالصا يمثل غضبه لهذا الوطن إن عدا عليه عاد ، ويمثل بذله وتضحيته حين يعز

البذل وتعز التضحية . وهذا أنبل طرفى الحب وأغلاهما ، وما هذا بغريب على من نشأ يلقن عن المادين : احفظ بلدا رشحك غذاؤه ، وارع حمى أكنك فناؤه .

فإذا ما كاد يشب عن الطوق ، قرأ مع القارئين : حُرمة بلدك عليك كحرمة أبويك .

وإذا ما استوى يفهم قال مع القائلين : كما أن لحاضنتك حقُ لبنها ، كذلك لأرضك حق وطنها .

وإذا استقر يَعى ذكر مع الذاكرين : أرض الرجل أوضح نسبه ، وأهله أحضر نشبه .

فإذا هو بعد هذا كله قد امتلأ حمية وامتلأ حفاظا ، يدفع عن وطنه ، ويدفع عن أهله وهو يدفع عن أعز شيئين : أنصعِ ما فى نسبه وأغلى ما فى نشبه ، وكلاهما مؤذٍ إن ضاع ، او عرض لهما تلف ، فالمرء بعزة نسبه يشرف ، وبما فى يديه من متاع يعيش ، وما الحياة إلا عيش وشرف ، لا يستقيم عيش دون شرف ، ولا دوام لشرف دون عيش .

وهذه الحِكم التى أملتها عليه ألسنة حكيمة ووعاها هو بقلب حكيم ، هى التى أملت على شاعره أن يقول :

وأرى البلاد إذا سكنت بغيرها جدْباً وإن كانت تظل وتخصب

ويحل أهلى بالمكان فلا أرى   طرفى لغيرك مرةً يتقلّب
وأصانع الواشين فيك تجملا   وهمُ علىّ ذوو ضغائن دُوَّب
وتهيج سارية الرِّياح من ارضكم   فأرى الجناب لها يُحل ويُجنب
وأرى العدو يحُبكم فأحبه   إن كان ينسب منك أو لا ينسب

يعنى أنه يكون مع مافيه الخير لبلاده لا يحيد، يساير ما به خيره ويجانب ما فيه ضيره، يحمل فى ذلك ما يكره ويصبر على ما يؤذى.

وغير بعيد من هذا، ذاك الشاعر الذى يبقى على حُبه الخير لبلده وإن ناله الضر فيه، يحمى لذلك ولا يعدل عنه، ويراه فرضاً عليه يجب أن يحمله فيقول:

فيا وطنى إن فاتنى بك سالف   من الدهر فلينعم لساكنك البال

فما أراد بها دعوة عابرة بل أراد بها إفصاحا عما يكن لبلده ولأهل بلده من حمية له ودفاع عنه، يأبى له الضيم فيذود عنه المعتدين، ويحب له الخير فيسعى مع الساعين.

وإلى جانب هذا الشاعر الذى يملى عن ملاينة ومسالمة شاعر يملى عن إباء ومخاشنة فيقول:

اقرأ على الوشل السلام وقل له   كل الموارد مُذ هجرت ذميم
جبل ينيف على الجبال إذا بدا   بين الغدائر والرمال مقيم

تسرى الصبا فتبيت فى ألواذه ويبيت فيه من الجنوب نسيم
(الألواذ: الجوانب)
سقياً لظلك بالعشىّ وبالضحى
ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذُق
ما فى قلاتك ما حييت لئيم
(القلات. النقر فى الجبل)

أرأيت كيف حمى شاعرنا نخرج من الملاينة إلى المخاشنة، وود لو رزق قوة يمنع به حمى وطنه عن أن يدنس، وثراه من أن يلوث، وماءه من أن يعكره لئيم، وهو يريد دخيلا.

ثم إلى جانب هذا الشاعر الذى ود وتمنى شاعر فعل وتغنى، وإذا هو يقول:

مَنعنا مدفع الثلبوت حتى نزلنا راكزين به الرماحا
(الثلبوت: واد):
نقاتل عن قُرى غطفان لما خَشينا أن تَذِل وأن تباحا

وما أدل قول أبى طالب بن عبد المطلب:

منعنا أرضنا من كل حى كما امتنعت بطائفها ثقيف
أتاهم معشر كى يسلبوهم فحالت دون ذلكم السيوف

وفى مثل هذا يقول الصنوبرى :

أنا أحمى حلباً دا رًا وأحمى من حماها

وإذا ذكر هذا الشعر الذى قيل فى الحماية والحفاظ ذكر فى مكان التفضيل شعر ابن الرومى حيث يقول من قصيدة يمدح بها سليمان بن عبد الله بن طاهر :

ولى وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
عَهدت به شَرخ الشباب ونعمة
كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه
لها جسد إن غاب غودر هالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم
مآرب قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم
عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا

فهاهو ذا قد أبان عن ركنى الحب فى نفسه : الحماية والرعاية ، سبق بالحماية ثم عقب بالرعاية ، جعل الرعاية ـ وهى علة ـ لاحقة للحماية ـ وهى معلول . ودل على حمايته بخير ما يدل عليها به خير

زائد ، كما دل على حبه بخير مايدل عليه به خير زائد ، فإذا هو قد سوّى لنا من هذه الأبيات القليلة الحب الكامل بأسبابه الكاملة .

وليس ماورد فى القرآن الكريم حول الديار التى هى الأوطان إلا من الحمية ، فقد ذكر الله تعالى على لسان نبيه الديار عشر مرات فى عشر آيات فقال تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

(البقرة ٨٤ — ٨٥)

ويقول تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » . (البقرة ٢٤٦)

ويقول تعالى : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابُ » .

(آل عمران ١٩٥)

ويقول تعالى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » .

(النساء ٦٥)

ويقول تعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا

وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » . (الحج ٣٩ — ٤٠)

ويقول تعالى : « وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا . تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » .

(الأحزاب ٢٦ — ٢٧)

ويقول تعالى : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ

بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ » .

(الحشر ٢)

ويقول تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ».

(الممتحنة ٨ — ٩)

فقد قرن تعالى الديار ـ التى هى الأوطان ـ فى آيات تسع بالإخراج، وقرنها فى آية عاشرة بالإيراث ، ومن أذلّ وأضعف ممن أخرج من داره ، أو ممن ورث عنه غيرُه داره .

وأى شىء تحمَى به نفس الإنسان من أن يرُوَّع بإخراجه عن وطنه ، أو أن يرى غيره عليه مالكا .

وشفع تعالى هذا كله بالإيذاء والقتل ، وهو من إذكاء النفوس وإحمائها ، فأنت لن تقف لعدوك ترده عن حياضك ، ولن تقوى على عدوك تدخل عليه حياضه ، إلا إذا هان عليك الأذى وهان عليك القتل .

ولقد صور لنا القرآن الكريم من هذا كله صورة الوطن، كيف تكون، وأحلها من القلوب مكانها، ومن الأنفس منزلتها فإذا هي كما يُصورها القرآن الكريم الوجود كله لأنها مناط الأمن، ومن لا أمن له لا حياة له، من أجل ذلك حض القرآن على الهجرة وأمر بها حين يفقد الإنسان أمنه حيث هو في وطنه، أمره بأن يخرج عنه حين لا يملك أن يحمى أمنه، وهو يريد له بهذا الخروج قوة يرتدّ بها على العادى عليه في أرضه، وهو لهذا جعلها هجرة كتلك التى خرج إليها نفر من الصحابة إلى الحبشة حين لم يأمنوا على أنفسهم في ديارهم. ما نظن الرسول وما نظن القرآن أرادها خروجا كما يخرج الذليل مطروداً وإنما أرادها نزوحا إلى حين، أمنا على رأى ودين، ثم عودة بعد حين بعد أن يكتب الله لهم قوة ولعدوهم ضعفا.

وهكذا أراد القرآن الوطن للمسلمين دار أمن لا يغلبهم فيها على دينهم ولا على رأيهم غالب، وهكذا الأمن ليس رخيصا فَيُشترى رخيصاً، بل هو ثمين غال، من أجل ذلك جعل ثمنه ثمينا غالياً، جعله تحمّل الأذى ثم بذل النفس، إن كان لا بد من بذل النفس.

ويتصل بهذا الغرض ـ أعنى الحمية للوطن ـ لون آخر من

الشعر يكاد يبد و بعيداً عنه ولكنه منه ، وأريد به مراثى البلدان وندبها وذكر ما حل بهـا من عسف عاسف واغتصاب عدو غاصب،فهذا لاشك من هذا الغرض ويُعد خاتمة له ، فالمرء حين يَحمى للشيء يهيء لتلك الحمية قبل أن تكون معركة ، فإذا ماشبت المعركة خاضها يُذكى الهمم ويثير القلوب وإذا ماتكشفت المعركة عن فوز ارتضاه وتغنى به ، وإن تكشفت عن غيره ضاق به وندب الحظ العاثر والجد المنكوب ، وهذا هو أدب المراثى .

وأدب النصر أدب يتصل بالقادة أكثر مما يتصل بالبلاد ، يُقصد فيه إلى المحاربين ولا يقصد فيه إلى البلاد ، من أجل هذا سوف لانلتفت إليه بل سوف نلتفت إلى أدب المراثى ، على أنه جزء يتم به الحديث عن أدب الحمية للأوطان .

ولقد أصيب العرب فى ذلك بنكبات كانت أفجعهـا نكبتهم فى المشرق بالتتار الذين خربوا وقتلوا وسلبوا ونهبوا وتركوا الديار خراباً والربوع يبابا ، ثم نكبتهم فى الغرب بالفرنجة الذين أجلوهم عن الأندلس وأخرجوهم من بلاد لهم كثيرة .

استمع إلى علاء الدين العزولى وهو يبكى دمشق ويرثى ما حل بها مع هجوم المغول :

أجريت جمر الدمـع من أجفانى
حُزناً على الشقراء والميدان

لهفى على وادى دمشق ولطفه
وتبدّل الغزلان بالثيران
واحسرتاه على دمشق وقولها
سبحان من بالمغل قد أبلانى
لهفى عليك محاسنا لهفى عليـ
ـك عرائساً لهفى عليك مغانى
أدمشق آهاتى عليك كثيرة
كالدمع فى جفن الكئيب العانى
لىَ أنّة لىَ حُرقة لىَ لهفة
لىَ حسرة لى لوعة وكفانى
ما كان أهنى العيش فى ساحاتها
والدار دارى والزمان زمانى

والقصيدة طويلة ولكننا اجتزأنا منها بهذا القدر . وأنت ترى معى كيف يثيرك هذا البكاء إثاره غيره من شعر الهيجاء ، بل قد يفعل هذا فوقَ ما يفعل الآخر .

ثم استمع إلى السميسر وهو يندب الزهراء بالأندلس :

وقفت بالزهراء مُستعبرا مُعتبرا أندب أشتاتا

فقلت يا زهرا ألا فارجعى قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكى وأبكى بها هيهات يغنى الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادبٌ يندُبن أمواتا

ثم استمع إلى بعض شعراء الأندلس وهو يندب طليطلة :

طليطلة أباح الكفر منها حِماها إنّ ذا نبأ كبير
ألم تك معقلاً للدين صَعبا فذلّله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعاً فصاروا حيث شاء بهم مصير
أصبرا بعد سَبي وامتحان يُلام عليهما القلب الصبور
أنترك دورنا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور

أرأيت كيف يهيج الرثاء القلوب، وكيف تفيق عليه النفوس وتثوب.

ونحن إذا أردنا أن نقف فلا نطيل ، وأن نجتزى فيما نروى ونقول ، فحسبنا فى هذا المقال قول الرُندى المشهور :

لكل شيء إذا ماتمّ نقصان فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

إلى أن يقول يصف ما دهى الأندلس :

دَهى الجزيرة أمرٌ لاعزاء له هوى له أحُد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلف هيمان

إلى أن يقول يختم قصيدته :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان

والحمية

للوطن لما مظهران أحدهما هذا الذى رأيت ، يصوره لك ذاك النثر وهذا الشعر ويصوره لك القرآن الكريم ، يصوره النثر هادئاً ورزينا حقوقاً وواجبات ، يقدم لك أسبابها الملزمة وأدلتها الموجبة ، يحاول أن يجعلها قضية ويحاول أن يجعلها قضية حياة أو موت . عزة أو مهانة ، رفعه أو ضيعة ، وهو حين يرفعها إلى هذا المستوى يرفع نفسك معها إلى هذا المستوى بعد أن يقدم أسبابها الموجبة ، وإذا هو قد أثارك بالدليل وهاجك بالبينة فجمع إلى وجدانك عقلك ، إذا فتر أحدهما أيقظه الآخر ، ولكنه على هذا هادئ رزين كما قلت ، ذلك لأنه قد اختار أن يجعل منها حقا وأن يجعل منها واجبا ، يسوق هذا وذاك مساق القضية بأسبابها تعيها بعقلك ليملى عقلك على وجدانك .

وتصوير الشعر لها غير تصوير النثر ، تصوير لا يدين فى شىء للهدوء والرزانة ، ولا يدين فى شىء لأسلوب القضايا بأدلتها وبراهينها ، بل هو يملى عن ثورة ويملى عن هيج ، إذ هو قد علا درجة عن النثر ، فلقد أغلق العقل عن أن يتسع لقضية تساندها أسبابها ،

وتفتح الوجدان ليشتعل نارا بكلمات كلما كانت من نار كانت أمسّ وأقرب ، فهو يخطو العقل إلى الوجدان ، وإذا صبا الوجدان أصبى العقل أو كاد .

وحين يُرد ذلك التصوير إلى القرآن الكريم نحس أننا قد خُوطبت منا العقول والوجدانات معاً ، نحس أننا بين منطق القضية وبين الحفاظ للحق ، نحس أننا قد مَلَكنا الوطنُ عقلا وقلبا ، وأنه قد ملأ منّا الفكر وملأ منا القلب ، يسمو عن أن يسبق القضية بالدليل حتى لا يُوهن من قدرين : قدر الوطن وقدر للوطن ، ويعرضها قضية محكوما بها قد استقامت فى الأذهان واستوت فى العقول ، ويعرضها صورة لا تتصل بها مغريات ولا مُلزمات حتى لا يُوهن من قدرين : قدر الوطن وأنه لا يمنع إلا إذا اجتمع فيه المغرى والملزم ، وقدر المُوطن وأنه لا يُمنع وطنه إلا إذا اجتمع له فيه المُغرى والملزم ، وإذا أنت بهذين العَرضين قد تهيأت لشىء جلل ، وإذا هو يعرض آخر الأمر هذا الشىء الجلل لا يعرضه أمنية أنت فى سبيلك إليها بل يعرضه حقيقة فى ملكك وقد خرجت من يديك ، وهو بهذا يبلغ من نفسك أعز مبلغ .

بهذا العرض عرض القرآن الأوطان ، وبهذا المنطق المملوء فكرا أو حمية خاطب القرآن العقول والقلوب عن الأوطان ، فحميت

العقول وعقلت القلوب ، فإذا هى آمن ما تكون بما تسخو وأسخى ما تكون لما تؤمن ، تؤمن بالوطن إيمانها بخالق الوطن ، وتعد الإيمان بالوطن من صحة الإيمان بخالق الوطن ، وترى أن من لم يشكر للأرض التى أقلّته وكفلت له ولأسلافه من قبل ، ثم لأخلافه من بعد ، مَنبتاً ومرَاداً ومآلا ، لم يشكر لخالق هذا كله ولم يؤمن به .

هذا هو المظهر الأول من مظاهر الحمية للوطن يصوره لك النثر ويصوره لك الشعر ثم يصوره لك القرآن ذلك التصوير الرائع الذى كشفت لك عنه ، وأرجو أن أكون قد وفقت .

وهذا المظهر فيه متنفّس للنفوس مع الهيج ، وحين تعدها لهيج . ولكن ثمة مظهرا آخر تأنس به النفوس حين الدعة والسلم ، ولا تنسى فيه حميتها ولكنها تصورها تصويراً آخر كله حمية وكله حرب ، ولكنها حمية لها لون آخر وحرب ذات طابع آخر ، فلا تملى النفوس عن هيج ولكنها تملى عن شىء يشبه الهيج ، كلاهما حمية ولكن الأولى حمية حمراء والثانية حمية بيضاء ، الأولى سلاحها سهام والثانية سلاحها كلام .

وهذا يدلك على أن الحمية للوطن موصولة بالنفس لا تفارقها حربا وسلما ، تعرفها النفوس فى الحرب على صورة وتعرفها

فى السلم على صورة ، فصورتها فى الحرب هى ذلك المظهر الأول الذى صورته لك وصورت لك صوره المختلفة ، وصورتها فى السلم هى ذلك المظهر الآخر الذى أريد أن أصوره لك وأعرض لك صوره ، فإنى أعد هذا الأدب الذى دار حول فضائل البلدان أولا ثم حول تفضيل بعضها على بعض ثانياً : هو المظهر الآخر من مظهرى الحمية . أعد الأول — أعنى ما يدور حول فضائل البلدان صورة ، وأعد الثانى — أعنى ما يدور حول تفضيل البلدان بعضها على بعض — صورة أخرى .

وأعد الصورة الأولى التى هى فى فضل البلدان صورة ألصق كل اللصوق بهذا المظهر الثانى من مظهرى الحمية للوطن ، أعنى المظهر السلمى ، وأعد الصورة الثانية التى هي فى تفضيل البلدان ألصق كل اللصوق بالمظهر الأول من مظهرى الحمية للوطن ، أعنى المظهر الحربى . فهذه الصورة الأولى سلم كلها ، صفة الحمية فيها هى تلك الصفة التى تنطق عن إعزاز وتنطق عن إجلال وتنطق عن وفاء ، ولكن الصورة الثانية التى هى ألصق كل اللصوق بالمظهر الأول ، من مظهرى الحمية للوطن ، حرب كلها ولكنها حرب قوامها الكلام — كما قلت لك فهى ترفع بلدا

على بلد ، وتزرى بأرض لتشرف أرض ، لا ترحم كما لا ترحم الحرب ،ولن يقل فوز المحارب بلسانه عن فوز المحارب بسنانه .

هاتان هما صورتا المظهر الثانى من مظهرى الحمية للوطن ، أولاهما – كما قلت لك – هى تلك التى تصور فضائل البلدان ، وثانيتهما هي تلك التى ترفع بلدا على بلد وتحط من بلد ليرتفع بلد.

وهذا المظهر الثانى بصورتيه لم يتخيله العربى البادى المتنقل فى الصحراء بين مواقع الغيث واضحاً ولم يعرض له عرضا بينا .

وحين استوت قدما ذاك العربى على أرض الحواضر وذاق حلاوة العيش هناك ، واختلفت البلاد بين يديه يراها كلها له ، يترك مالا يشاء إلى حيث يشاء ، ولم تعد البلاد كما كانت بالأمس بقاعا محدودة بينها مشتاه ومصيفه ، يخرج عن هذه إلى تلك ثم يعود من تلك إلى هذه ،حياته موصولة بهما لامعدى له عنهما ، تعطيه هذه وتعطيه تلك ، هذا إذا لم يكن غانيا بمكان لا تحول له عنه . من أجل ذلك لم يجر لسانه بذكر فضائل بلد ، على ذلك النحو الذى عرف عند المتحضر ، ولم يجر لسانه برفع مكان على مكان،ولا الإزراء من مكان ليرتفع مكان ، على ذلك النحو الذى عرف عند المحتضر . لا يعرف له من هذا وذاك إلا شعر الحب والحنين ، وقد نستطيع أن نقول : ان شعر الحب والحنين

من هذا الذى نحب أن نثبته لأدب الحواضر دون أدب البوادى، والذى نحب أن نعقده حول فضائل البلدان ثم حول تفضيل بلد على بلد.

ويكاد يكون أول ما نحسه لهذا المظهر الثانى من مظاهر الحمية هو ما نطق به القرآن الكريم فى قوله تعالى:

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ». (البقرة ١٢٦)

ثم فى قوله تعالى: « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا » (إبراهيم ٣٥)

ثم فى قوله تعالى: « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ » (البلد ١)

وفى قوله تعالى: « وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » (التين ٣)

فأنت تقرأ فى الآيتين الأولى والثانية لإبراهيم عليه السلام دعاءه ربه بان يجعل من هذا المكان الذى اتخذه وطناً بلداً آمنا وبأن يرزق أهله من الثمرات. وما أعظمه من فضل ناله البلد الأمين على لسان إبراهيم.

ثم نستمع إلى الله تعالى فى الآيتين الأخيرتين يقسم بهذا البلد الأمين فى موضعين، وهل بعد هذا فضل لذلك البلد الأمين.

نعم نستطيع أن نعد هذا الذى نطق به القرآن الكريم أول ما قيل فى جلاء وبيان عن فضل الأوطان، ونكاد نملك به دليلا على ما قدمنا من أن هذا المظهر كان مع نشأة الحواضر ولم يكن مع حياة البوادى .

وفى ظل القرآن نطق الحديث، ولقد عقد الترمذى فى صحيحه أبوابا للمناقب جعل منها بابا فى فضل المدينة ، وبابا فى فضل مكة ، وبابا فى فضل اليمن ، وبابا فى فضل الشام .

فى فضل المدينة ينقل الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالحرّة ، السقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بوضوء . فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة ثم قال : اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك ، ودعا لأهل مكة بالبركة ، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مُدهم وصاعهم مثلَى ما باركت لأهل مكة ، مع البركة بركتين .

ويروى الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب وأبى هريرة قالا : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

ويروى الترمذى بسنده عن ابن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها .

ويروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة أنه كان يقول : لا رأيت الظباء ترتع بالمدينة ماذعرتها . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما بين لابتيها حرام .

وفى فضل مكة يروى الترمذى بسنده عن الزهرى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على الحزورة فقال : والله لإنك لخير أرض وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت .

ويروى الترمذى بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة : ما أطيبك من بلد وأحبك إلىّ ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك .

وفى فضل اليمن والشام يروى الترمذى بسنده عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لنا فى شأمنا وبارك لنا فى يمننا .

فهذا شىء مما يُروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، يرويه الراوون عنه ليدلونا على مكان الوطن من قلبه صلى الله عليه وسلم

ومكانه على لسانه ، وحين أحب النبي صلى الله عليه وسلم وطنه أحب له الخير والبركة فدعا للمدينة كما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة ، لم يجتزىء بأن تكون دعوة لقاء دعوة ، بل أحب أن تكون دعوته دعوتين . وأحب للناس أن يحبوا المدينة حبه فرّغب فيها بذكر الكثير مما لها من فضل .

وأحب النبي صلى الله عليه وسلم مكة فدلك على فضلها من نفسه ومكانتها فى حديثين سقتهما لك يفصحان عن أعمق ما يكن مواطن فى قلبه لوطنه .

وأحب النبي صلى الله عليه وسلم اليمن والشأم فسال الله لهما البركة وسأل الله لهما الخير .

وهكذا ينطق الحديث الشريف كما ينطق القرآن الكريم بما يعطى للمدن فضلا ، وربما يقوم دليلا جديدا على أن هذا اللون من القول حول فضل المدن كان من طبيعة الحواضر لا من طبيعة البوادى .

وقد ساق ابن عساكر فى كتابه « تاريخ مدينة دمشق » جملة من الأحاديث عن فضل الشام ودمشق فى أبواب مختلفة .

منها ما يرويه ابن عساكر بسنده عن ابن حوالة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ستجنّدون أجناداً جندا

بالشام وجندا بالعراق وجندا باليمن . فقمت فقلت : خر لى يا رسول الله . فقال : عليكم بالشام . فمن أبى فليلحق بيمنه وليستق من غدره ، فإن الله قد تكفّل لى بالشام وأهله .

كما عقد البغدادى فى كتابه « تاريخ بغداد » بابا عن مناقب بغداد وفضلها ، هذا بعد ما جرّح فى باب قبله أقوال الثالبين لبغداد الطاعنين فيها .

ويضع ابن الخطيب فى فضل البلدان ، وهو يعنى دياره التى عاش فى أحيائها ورتع فى أرجائها ، كتابا سماه « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » فإذا هو يسوقها بلدا بلدا فى أسلوب يفيض بالإكبار لتلك المعاهد والديار ، يصور لك قدرها فى نفسه ونبلها على حسه ، فيقول فيما يقول :

قلت فسهيل ؟ قال : حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى بفضله كل ذى عقل رصين .

قلت فمدينة مالقة ؟ قال : وما القول فى الدرة الوسيطة ، وفردوس هذه البسيطة ، تبعث لها بالسلامة مدينة السلام ، وتلقى لها يد الاستسلام . أى دار ، وقطب مدار ، وهالة أبدار ، فحماها منيع حريز ، وديوانها ذهب وإبريز .

قلت فبلش ؟ قال : جادها القطر الصيب ، فنعم البلد الطيب ،

حلي وَنحر ، وبر وبحر ، وبلد أمين ، وفوا كه عن شمال ويمين.

قلت فمدينة المرية ؟ قال: المرية هنية مرية ، بحرية برية ، معقل الشموخ والإباية ،ومعدن المال وعنصر الجباية ، وحياة الأسطول، غير المعلل بالنصر ولا المطول .

قلت فمدينة غرناطة؟ قال : حضرة سنية ، والشمس عن مدح المادح غنية ، كبرت عن قيل وقال ، وجلت عن وامق وقال ، حجبت الجنوبَ عنها الجبال ، فأمنت الوباء والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال .

قلت فمدينة سبتة ؟ قال : تلك عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة .

قلت فمدينة فاس ؟ فقال :

رعى الله قُطرا أرضه تُنبت الغنى
وآفاقه ظـل على الناس ممـدود

نعم العرين ، لأسود بنى مرين

بلد أعارته الحمامة طوقها   وكساه ريش جناحه الطاووس
فـكأنما الأنهار فيه مُدامة   وكأن ساحات الديار كؤوس

بهذا يؤرخ ابن الخطيب لمعاهده ودياره ، التى شملته فى مقامه

وتسياره، لايريد تأريخا ولكن يريد الإشادة بفضل، وذكر منقبة وأصل، ورفعة قوم وأهل.

وعلى هذا النحو أو قريب منه ساق النويرى فى كتابه: «نهاية الأرب» فى الجزء الأول من البلدان ماتُعدله أوطان، ومضى يذكر مالها من فضل. فلقد ذكر مكة، وذكر المدينة، وذكر الأرض المقدسة والشام واليمن، وذكر مصر. وقد سقت لك شيئا عن جل هذه المدن ولم أذكر لك ماورد على ألسنتهم فى فضل مصر، وحسبي هنا بعض ماأورده النويرى ليتم به الحديث عما قيل فى فضل البلدان.

فلقد مضى النويرى يتتبع ورودها فى كتاب الله عز وجل، فعد من ذلك أربعة وعشرين موضعا منها ماهو بصريح اللفظ، ومنها مادلّت عليه القرائن والتفاسير.

ثم أتبع النويرى ذلك بما ورد فيها من الحديث النبوى فقال:

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم ذمة ورحما.

كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه ذكر مصر فقال: ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤونته.

وأتبع النويرى هذا وذاك بأقوال متفرقة عن فضل مصر فقال :

وعن كعب الأحبار : لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر . فقيل له : ولم ؟ فقال لأنها معافاة من الفتن ، ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه .

كما روى عن عمرو بن العاص أنه قال : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة .

ولم يبعد النواجى عن النويرى فيما ساقه فى كتابه ، حلبة الكميت ، عن بلدان ، هى من الوطن العربى ، الذى هو وطن لكل عربى .

وللشعراء فى ذلك شىء كثير أشادوا فيه بالمكان الذى يحلون ، ولم يشيروا إلى الوطن العام فيه يقولون . وهى نظرة لهم فيها شىء وعليهم فيها شىء ، لا نستطيع أن نعطيهم الحق كله كما لانستطيع أن نحملهم الوزر كله . فلقد عاشت الدولة العربية الكبيرة مقطوعا ما بينها فى الأكثر موصولا ما بينها فى الأقل، تعرف الولايات الولاة المختلفين إليها المتغيرين عليها ولا تعرف الولايات الولايات إلا بلمحة عابرة أو عن نقلة طارئة . من أجل هذا عاش الشعراء لايتعلقون إلا بمواطىء أقدامهم فإن اختلفت المواطىء

اختلفت الأقوال ، وإلا فهم مع موطىء واحد لايبعدون عنه ، هذا مالهم وهذا عذرهم ، ولكنهم على هذا ملومون ، وما نحب أن نلومهم على أنه لم يصفوا مالم يشاهدوا ومالم يحسوا ، ولكنا نحب أن نلومهم على معانى النفس ونوازع الفكر وخواطر البال وهم المفكرون الراءون ، وفى نفوسهم معنى الوطن العام وفى فكرهم نوازعهم إليه ، وعلى بالهم خواطرهم فيه .

فهم قد عاشوا للخاص ولم يعيشوا للعام ، وكان بوسعهم لو شغلوا بالثانية شغلهم بالأولى أن يربطوا الأفكار ، ويوجدوا الخواطر ، ويجمعوا النفوس على حال أقوى وأوصل وأمكن .

ولقد سمعنا لهم فى ذلك الشىء الخاص الكثير :

سمعنا الواسانى يقول فى حلب :

ياساكنى حلب العوا صم جادها صوب الغمامه

وسمعنا لابن أبى داوود الطرسوسى يقول فى طرسوس وأهلها :

طرسوس أهل الفضل والجهاد ومنتهى الرغبة للعباد
تيك بلادى وبها تلادى ومألفى ومعدن الرشاد

وسمعنا للصنوبرى يقول فى دمشق :

صفت دنيا دمشق لساكنيها فلست ترى بغير دمشق دنيا

تفيض جداول البلور فيها خلالَ حدائق يُنبتن وشياً
فمن تفاحة لم تَعدُ خدّاً ومن أترجة لم تَعدُ ثديا

وسمعنا للهمدانى محمد بن على يقول فى بغداد :

فدى لك يا بغداد كل قبيلة
من الأرض حتى خُطتى ودياريا
فقد طفت فى شرق البلاد وغربها
وسيّرت رحلى بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلا
ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرقّ شمائلا
وأعذب ألفاظا وأحلى معانيا

وسمعنا للصفدى صلاح الدين يقول فى مصر :

لِمَ لا أهيم بمصر وأرتضيها وأعشقْ
وما ترى العين أحلى من مائها إن تألقْ

وسمعنا لإبراهيم المعمار يقول فى مصر أيضاً :

ما مصر إلا منزل مُستحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا
هذا وإن كنتم على سفرٍ به فتيمّموا منه صعيداً طيبا

ولابن مكانس موشح طويل عدد فيه أوصاف القاهرة

والنيل ، وأتى بالبديع الجميل ، يقول فى بعضه :

وعُج على شبْرا محلّ الراح ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ واعجب من الغَبوق والصباح
إذ كأسها يُغنى عن الصباح ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ واعقد لبنت الكرم والأفراح
على نمير النيل أهنى عقد

ولو أحببنا تتبع ذلك لسقنا الكثير ، ولكنا نكتفى منه بما أردنا ، والشىء يدل بعضه على كله .

— ٨ —

والأدب العربى حين اتسع لهذه الصورة الأولى فى فضل الوطن دون تعريض أو تهوين أو إزراء بغيره ، أخذ يتسع للصورة الثانية ، وهى تفضيل البلدان مع تعريض وتهوين وإزراء ، فقلما يستطيع ذاكر فضل فاضل أن يقف عند حدود ذكر الفضل ، لا يعدوه إلى ذكر مثالب المفضول ، يتفاوت القول فى ذلك قصدا أو إسرافا .

والأدباء حين ذكروا وطنا خاصا وأنسوا وطنا عاما ، وحين جرهم ذاك الذكر إلى أن يقولوا فى أوطانهم الخاصة لفضلها ذاكرين ، جرهم هذا النسيان إلى أن يقولوا فى بلدان أخرى من وطنهم العام عليها مفضلين ، ثم جرهم هذا التفضيل إلى أن يكونوا ثالبين ، فإذا نحن بين أدب مفرق لا أدب جامع ، وإذا نحن بين لون من ألوان الهجاء والتهاجى يجرى على ألسنة البلدان ، بعد أن كنا نسمعه على ألسنة الأفراد والقبائل .

وحين جرؤت الألسن على هذا الثلب تريد أن تنصر به بلدا

على بلد ، وتفضل بلداً على بلد ، جرؤت تلك الألسن على أقوى منه فاخذت تثلب البلدان دون ذلك الوازع وهذا السبب ، وإذا نحن نجد فى الأدب العربى من هذا وذاك الشىء الكثير يغلب شعره على نثره ، وكما قال المشارقة فى ذلك قال المغاربة ، لم يخل أدب المغاربه مما لم يخل منه أدب المشارقة .

يقول شاعر فى تفضيل مدينة بست :

إذا قيل أى الأرض فى الناس زينة
أجبنا وقلنا أبهج الأرض بستها

ويقول عمارة بن عقيل فى تفضيل بغداد :

أعاينت فى طول البلاد وعرضها
كبغداد من دار بها مسكن الخفض
صفا العيش فى بغداد واخضر عوده
وعيش سواها غير خفض ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها
مرىء وبعض الأرض أمرأ من بعض
قضى ربها ألا يموت خليفة
بها إنه ماشاء فى خلقه يقضى

ويقول ابن أبي عُيينة يؤثر البصرة على غيرها :

ياجنة فاقت الجنان فما تعدلها قيمة ولا ثمن
ألفتها فاتخذتها وطنا إن فؤادى لمثلها وطن

ويقول أبو الغمر يفضل جرجان :

هى جنة الدنيا التى هى سجسج يرضى بها المحرور والمقرور

ويقول كشاجم فى إيثار حلب :

أرتك ندا الغيث آثارها وأخرجت الأرض أزهارها
وما أمتعت جارها بلدة كما أمتعت حلب جارها
هى الخلد يجمع ما تشتهى فزرها فطوبى لمن زارها

ويقول ابن الساعاتى فى تفضيل خليج مصر :

قف بالخليج فإنه أشهى بقاع الأرض ربعا
رقصت له الأغصان إذ أثنى الحمام عليه سجعا

ويقول ابن عنين فى إيثار خوارزم :

خوارزم عندى خير البلاد فلا أقلعت سحبها المغدقه

ويقول الصنوبرى فى دمشق مفضلا لها :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها فلست ترى بغير دمشق دنيا

ويقول ربيعة الرقى فى الرقة يفضلها :

حبذا الرقة دار أو بلد بلد ساكنه ممن تود

ما رأينـــــا بلدة تعدلها لا ولا أخبرنا عنها أحـد

ويقول الحسين بن الضحاك يفضل سر من رأى على بغداد:

سر من را أسرّ من بغداد فاله عن بعض ذكره المعتاد

ويقول أبو محمد اليزيدى يفضل صنعاء على غيرها :

سقيا لصنعاء لا أرى بلدا أوطنه الوطنون يشبهها

ويقول شاعر مصر :

إن مصرا لأطيب الأرض عندى
ليس فى حسنهـا البديع قيـاس
ولئن قستهـا بأرض سواهـا
كان بينى وبينك المقياس

ويقول المأمونى فى تفضيل نيسابور :

ليس فى الأرض مثل نيسابور بلد طيب ورب غفور

* * *

هذا قدر من تفضيل المفضلين للأوطان فيه القصد لا تحس فيه التهوين ولا تحس فيه الإزراء ، ولقد كان مظهراً من مظاهر الحضارة التى لفّت البادية ولفت معها هؤلاء البادين ، فإذا هذه المدن فى أثوابها الزاهية تلفت إليها المقيمين فيها والناشئين ، فتطلق ألسنتهم بمفاتنها ، وتنشئهم على التغنى بمحاسنها . وهكذا تكاد

تكون تلك الحضارة هى التى خلقت هـذا اللون من الأدب ومهدت به السبيل إلى غيره مما يتصل به من أدب الإزراء وأدب التهوين بالأوطان الأخرى . ومن قبل ذلك كان البادى يوثر أرضه ولكن بأسباب أخرى هى تلك الأسباب التى مرت بك ، وأنها كانت أول أرض مس جلده ترابها ، وأن فيها حلت عنه تمائمه ، وأنها كانت مرتع صباه ومجال لهوه وأنسه ومجمع خلانه ومكان جلاده ومثوى قريب أو حبيب أو صديق ، وإذا تلك الأسباب كلها تستحيل أسباباً أخرى تدور حول مافى البلدان من أنهار جارية،وعيون نابعة،وجنات وحدائق وهواء وطعام ، وإذا هـذا العربى لا يقف عند ذكر الفضل بل يعدو ذلك إلى التفضيل .

فالحضارة - كما قلت - هى التى خلقت هذا اللون أو شكلته من فضل إلى تفضيل ، وما إن خلق هذا اللون حتى جر إلى غيره ، وإذا نحن بين أدب فى تهاجى الأوطان - إن صح هذا التعبير - وإذا هذا اللون من الأدب يكاد يخلق لوناً من الفرقة والتفرقة ، فلقد أنسى به الأدباء وطنهم العام وذكروا وطنهم الخاص .

وهذ الأدب صورتان - كما قلت لك - صورة فيها التفضيل المصحوب بالإزراء ، وصورة خالصة للإزراء ، لا ندرى أيتهما سبقت الأخرى .

وكما نظن أنهما نشأتا منفصلتين لم تمل واحدة على الأخرى ، نظن أنهما عاشتا متصلتين لم تملى إحداهما على الأخرى . فقد يذم الشاعر بلداً له ووطناً غير مؤثر ، وقد يؤثر غير ذام ، كما قد لا يحرك الذم فيه إلا الإيثار ، ولا يجره الإيثار إلا إلى ذم .

وفى الغرض الأول ، حيث يفضل الشعراء وطناً مزرين بغيره ، يقول البحترى يفضل الشام على العراق :

نصبُ إلىّ أرض العراق وحسنه
ويمنع عنها قيظها وحرورها
هى الأرض نهواها إذا طاب فصلها
ونهرب منها حين يحمى هجيرها
عشيقتنا الأولى وخلتنا التى
نحب وإن أضحت دمشق تغيرها
عنيت بشرق الأرض قدما وغربها
أجوّب فى آفاقها وأسيرها
فلم أر مثل الشام دار إقامة
لراح أغاديها وكأس أديرها

ويقول شاعر الأندلس يفضل غرناطة ويهون من قدر مصر والشام والعراق :

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هى إلا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق

ويغرق ابن المدبر فى التهوين حين يقول فى تفضيل الشام على مصر :

أحب الشام فى يسر وعسر وأبغض ما حييت بلاد مصر

فينبرى له زين الدين الوردى المصرى يقول ويغرق هو الآخر :

أرى أهل الشام يفاخرونا وذاك تجاوز فيهم وخصله
وكيف يفاخر الشامى مصراً وشهوة كل من فى الشام نخله

ويعرض شاعر بغدادى يفضل بغداد ويهون من مصر فيقول :

يقولون مِصْر أخصب الأرض كلها
فقلت لهم بغداد أخصب من مصر
وما خصب قوم تجدب الأرض عندهم
بما فيه خصب العالمين من القطر
إذا بشّروا بالغيثِ ريعت قلوبهم
كما ريع فى الظلماء سِرْب القطا الكدر

فيتعرض له شاعر مصرى يقول :

ديار مِصْر هى الدنيا وساكنها
هم الأنام فقابلْها بتفضيل

يا من يباهي ببغداد ودجلتها
مصرٌ مقدمة والشرح للنيل

ويعقب الصاحب بهاء الدين بن زهير فيقول :

فرعى الله أرض مصر وحيّا
ما مضى لى بمصر من أوقات

هات زدنى من الحديث عن النيـــل
ودعنى من دجلة وفرات

يا زمانى الذى مضى يا زمانى
لك منى تواتر اللذات

والحديث فى هذا كثير ، إثارته تثير ، وحسبنا منه هذا القدر الصغير . ولكننا لا نحب أن نعدو عنه إلى غيره قبل أن نؤكد ما قلنا قبل : من أن هذا اللون من الأدب كان لونا مغرقا ، أنسى فيه الشعراء الكثير وذكروا القليل ، وكانوا حين ذكروا هذا القليل حول أوطانهم الخاصة أنسوا الكثير حول وطنهم العام . ثم أنسوا أنهم شانوا أنفسهم حين حاولوا أن يشينوا غيرهم ، فإنما هم أهل وإن باعدت بينهم الأنحاء ، وإنما هو وطن وإن اختلفت الأسماء .

وها نحن أولاء نصل هذا الحديث الذى هو مزيج من إيثار وإزراء ، بالحديث الذى هو خالص للهجاء والإزراء ، تنفس فيه الشعراء عن ضيق بأمكنتهم ، ولكنهم حين تنفسوا هذا

النفس لم يكونوا يحسون أنهم ضائقون بأوطان ، ولكنهم ضائقون بإقامات : وكان هـذا هو الآخر مظهرا من مظاهر الحضارة ، فلقد بسطت تلك الحضارة الأرض تحت قدمى ذلك العربى يتبوأ منها حيث يشاء ، وهو الذى كان بالأمس لاصقا بمكان لايعدوه ، إن أخرج عنه أخرج قهرا ، وإن حالت الأسباب بينه وبين أن يعود لبث عمره يبكى ويندب ويتلهف ، فإذا تلك الحضارة تجعل وطنه تحت قدميه بلادا لا بلدا ، وإذا هو مع هذه السعة ينعم ويضيق ، ويأنس ويعبس ، إن برم تحول ، وإن استوخم تنقل ، لايرى حرجا من هذا التحول وذاك التنقل ، وهو الذى كان يحمل الأذى راضيا صابرا حين لم يكن له غير مكان ، ولم تختلف تحت قدميه البلدان ، فإذا هو بعدُ لا يجد حرجا من أن يمدح ما طاب ويذم ما عاب ، لايرى أنه يذم وطنا وإنما يجد أنه يذم أرضاً لم تحسن لقاءه ، وبقعة لم توفر له غذاءه . بهذا الإحساس وذاك خرج العربى عن مألوفه وأباح لنفسه أن يذم ويهجو ، وأن يفحش فى هذا الذم وذاك الهجاء ، وهو لا يرى أنه يذم وطناً أو يهجوه .

وعلى هذا النحو وفى هذا القصد قال الصنوبرى يذم بست :

ضيّعت أيامى ببُست وهمّتى   تأبى المقام بها على الخسران

وإذا الفتى فى البؤس أنفق عمره　　فمن الكفيل له بعمر ثانى

ويقول الصاحب فى ذم جرجان :

نحن والله من هوائك ياجر　　جان فى محنة وكرب شديد
حرها ينضج الجلود فإن هبـ　　ـت شمال تكدرت بركود
كحبيب منافق كلما هم　　بوصـل أحاله بصدود

ويقول الفرزدق فى ذم البصرة :

لولا أبو مالك المرجو نائله　　ما كانت البصرة الرعناء لى وطنا

ويقول شاعر ضاق بالرى وأهلها :

الرّى دار فارغه　　لها ظلال سابغه
لا ينفق الشعر بها　　ولو أتاها النابغه

ويقول شاعر يذم سجستان ، وقد أخرجه الضيق من الهجاء إلى الدعاء :

ياسجستان لا سقتك السحاب　　وعلاك الخراب ثم اليباب
أنت فى القرّ غصة واكتئاب　　أنت فى الصيف حيّة وذباب
صاغك الله للأنام عذاباً　　وقضى أن يكون فيك عذاب

ويضيق القاضى أبو الحسن الأستراباذى بنيسابور وأهلها فيقول :

لا قدّس الله نيسابور من بلد　　سوق النفاق بمغناها على ساق

كما يضيق المرادى باهلها فيقول :

لا تنزلن بنيسابور مغتربا
إلا وحبلك موصولا بسلطان
أولا فلا أدَب يجدى ولا حسب
يغنى ولا حرمة تُرعى لإنسان

فهذا ونحوه من الذم للبلاد ، والهجاء للعباد ، جرى على ألسنة الشعراء ، ولم يخالوا حين قالوا إنهم يهجون وطناً أو يذمون سكناً ، وإنما رأوا أنهم بين بقاع ، خاروا منها مايروقهم ولا ضير ، وعابوا منها ما يوحشهم ولا ضير .

— ٩ —

ولقد سقت لك هذه الأغراض المختلفة التى فرّعت إليها اتجاهات الوطن فى الأدب العربى لا أدعى أنى مثلت كل عصر ومثلت كل بيئة ، فهذا شىء يعوزه استقصاء واسع وجمع كثير وكتاب كبير ، ولكنى أستطيع أن أقول إنى قدمت بين يديك شواهد مختلفة حرصت أن تمثل تلك الأغراض وتلك الاتجاهات .

ولقد رأيتَ معى كيف بدأ أدب الأوطان فى ظل البادية وكيف تنوع فى ظل الحواضر ، ثم لقد رأيت أنه كان شيئا كبيراً اجتمع لنا منه شىء كثير .

ثم لقد رأيت معى كيف ربط هذا الأدب الناس بأوطانهم ربطا قويا لأنهم عاشوا موصولين به وصلا قويا ، تمثلوا أسبابه الواصلة فلم يفلت من أيديهم سبب ، وعاشت تلك الأسباب فى نفوسهم معانى ، وفى وجدانهم خواطر ، وعلى ألسنتهم كلاما . وكانوا على البعد كما كانوا على القرب . لا يشغلهم إيغالهم فى

البلاد وحلولهم غيرها من الديار عن أن يظلوا بوطنهم الأول موصولين وله ذاكرين .

فإذا وصفوا قاسوا ما يرون فى الغربة بما رأوا فى أوطانهم . ومن هذا قول ابن الصاحب حين وصف نيل مصر وفرح أهله به فى فيضه :

فرح الأنام بنيلهم إذ صار أحمر كالشقيق
وتبركوا بشروقه فكأنه وادى العقيق

وإذا تاموا وهاموا فى الغربة كان أول ما يتيمون به ويهيمون وطنهم بما يضم ويحمل، يرونه أغر عليهم مما تحت أيديهم وإن جل. من ذلك قول عبد الرحمن الداخل يشتاق إلى المشرق ، وقد هاجته نخلة تحكى نخلات موطنه :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول التنائى عن بنى وأهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

وإذا عن لهم أن يطلقوا فى الغربة اسما على مكان اختاروا من موطنهم الأول ليأنسوا بعد استيحاش وليحسوا أنهم على أرضهم الأولى لم يبرحوها .

وما هون من حبهم لأوطانهم أنهم قالوا فى التغرب أو الغربة يحثون عليها ويحببون فيها كما يقول أبو تمام .

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

وكما يقول نهيك بن أساف :

أأم نهيك أرفعى الطرف صادقا ولا تيأسى أن يثرى الدهر بائس
سيغنيك سعيي فى البلاد وغربتى وبعل التى لم تحظ فى البيت جالس

ومثل هذا وذاك للعرب كثير ، وما تدل كثرته أو قلته إلا على الضرب فى الأرض للسعى والرزق ، ثم إن كثرته أو قلته لتعطى العربى دليلا آخر على حبه لوطنه ، فمن سعى لغنى أهله سعى لغنى وطنه ، وهكذا يكون شعر الغربة أو التغرب صنفاً آخر من أصناف الحب للوطن لا صنفا من أصناف الكراهية له . والعربى إن أراد غربة إلى لا رجعة أرادها فى محيط وطنه العام وما هذه إن كانت بمنقصة له ، وهو إن أرادها غربة لكسب ومغنم يعود بهما إلى وطنه فهذه يمليها حبه ويمليها إعزازه . وهكذا ترى أن شعر الغربة أو التغرب لا يهون من شأن العربى فى حبه لوطنه بل يضم إلى أسباب حبه لوطنه سببا .

وهكذا أدى أدب الأوطان فى هذا الشق رسالته ، فلقد نشأ

فأحسن التنشئة أجيالا عاشت على حب الأوطان .

وحين حمل العربى الفاتح حبه فى يمينه وسيفه فى يساره يمنح حبه قبل أن يمنح سيفه ، حيث دخل من البلاد ، دل ذلك على أن أدب الأوطان قد حقق رسالته فى شقه الثانى ، فنشأ وأحسن التنشئة أجيالا تحب الأوطان حبها لوطنها ، وتحب الأهلين حبها لأهلها وهى على ذلك تؤثر وطنها وتغره ترى مافتحت امتدادا لوطنها الأول ، وبهذا طوت البلاد تحت رايتها صبغتها بصبغتها وضمتها إلى لغتها ودينها .

* * *

وأهم ما أحب أن ألفتك إليه أن أدب الأوطان العربية بدأ مع اختلاف أغراضه باسما وانتهى كئيباً ، بدأ معتزاً مفاخراً وانتهى شاكيا باكيا . فلقد خطا هذا الأدب مع الأمة العربية خطوة خطوة يسايرها فى جميع مراحلها منذ أن كانت أمة بادية ، أرضها بساط من رمال ، وبيوتها صف من خيام ، وصاحبها يوم أن انطوت لها الحواضر وضمتها المساكن ، ولكنها كانت قوية هنا كما كانت قوية هناك ، تملى على الزمن وتستمع لها الأيام ، مالكة غير مملوكة. وإذا هذا الأدب الذى عاش معها فى عهد قوتها يعيش معها فى عهد ضعفها ، حين أنسيت أمرها فطمع فيها الطامعون ، وإذا هى نهب لطامعين كثيرين ، وإذا هى مغلوبة على أرضها .

وأدب الوطن الذى عبر عن القوة فأحسن التعبير . عبر عن الهزيمة فأحسن التعبير ، ولقد رأيت كيف بكى المشارقة ديارهم مع غزو التتار ، وكيف بكى المغاربة ديارهم حين هب الأندلسيون لطردهم وانتزاع البلاد من أيديهم .

والمحنة التى أصابت الشرق بالتتار ، وأصابت الغرب بهذا الابتلاء . أعقبتها محن مختلفة امتدت أظفارها إلى الوطن العربى كله فلم يسلم قطر من ظفر ينشب فيه ، لم تنج مصر كما لم تنج الشام كما لم ينج العراق كما لم ينج غير هذه كلها ، وبات الوطن العربى مغلوبا على أرضه هنا وهناك .

وكان هذا هو العهد الباكى الشاكى فى أدب الوطن . وعلى الرغم من أننا ودعناه منذ عهد قريب غير أن آثاره لاتزال عالقة بالأذهان. ولقد كان سلطان الغالب قويًّا وبطشه عنيفا فاستطاع بهذا السلطان وذاك البطش أن يكم الأفواه ويحبس الألسنة شيئا فلم يجد هذا الأدب الشاكى الباكى متنفسا إلا فى القليل ، وحين كتب للأمة العربية أن تهب بعد همود، وأن تستيقظ بعد خمود ، هب معها هذا اللون من الأدب واستيقظ ، وإذا هو أدبها الغالب الذى لا نكاد نسمع غيره ولا نقرأ سواه ، وإذا هذا الأدب فى عهده الجديد يكاد يصور ذاك الأدب السالف فى عهود ، يصور جانب الحب ويصور جانب الحنين ويصور جانب الدفاع

ويصور جانب التفضيل ، لا يترك من هذا كله شيئا إلا صوره .

وحين أملى ذاك العربى الأول هذه الأغراض متفرقة كانت الأسباب تواتيه متفرقة ، ولكن هذه الأسباب التى كانت توآتى أديب الأمس متفرقة واتت أديب اليوم مجتمعة . أحس أنه منزوع منه وطنه مغلوب عليه فأحب وحن وحمى وفضّل ، من أجل ذلك بدأنا نحس فى أدب الأوطان هذه الأغراض كلها مجتمعة تجمعها الكلمة ويجمعها البيت وتجمعها القصيدة .

استمع إلى شوقى شاعر مصر وهو يقول بعد إيابه من منفاه فى الأندلس :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس ... كأنى قد لقيت بك الشبابا
وكل مسافر سيؤوب يوما ... إذا رزق السلامة والإيابا
ولو أنى دعيت لكنتَ دينى ... عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهى ... إذا فهت الشهادة والمتابا
وقد سبقت ركائبى القوافى ... مقلدّة أزمتها طرابا
تجوب الدهر نحوك لا الفيافى ... وتقتحم الليالى لا العبابا
وتهديك الثناء الحر تاجا ... على تاجيك مؤتلقا عجابا

ثم استمع إليه وهو يقول :

فيا وطن بأنفسنا نقيه ... ويا لدنيا العريضة نفتديه

إذا ما سِيلت الأرواح فيه   بذلنا ها كأن لم نعط شيئا
نروم لمصر عزّا لا يرام   يرف على جوانبه السلام
وينعم فيــه جيران كرام   فلن تجـد النزيل به شقيا
نموت فداك مصر كما حيينا   ويبقى وجهك المفدىّ حيا

ثم استمع إلى حافظ إبراهيم وهو يقول فى وطنه مصر :

إنى لأحمل فى هواك صبابة   يامصر قدخرجت عن الأطواق
لهفى عليك متى أرك طليقة   يحمى كريم حماك شعب راق

ويقول مصطفى صادق الرافعى :

بلادى هواها فى لسانى وفى دمى
يمجدهــا قلبى ويدعو لها فمى
ولا خــــير فيمن لا يحب بلاده
ولا فى حـديث الحـب إلا المتيم

ويقول خليل مطران :

يا مصر أنت الأهل والسكن   وحمىً على الأرواح مؤتمن
حبى كعهدك فى نزاهته   والحب حيث القلب مرتهن

ويقول محمود رمزى نظيم :

أحبُّ مواطن الدنيا لنفسى   وأشرفها وأخصبها بلادىَ
أقدس أرضها عن كل أرض   وعن كل المواطن والبلاد

وأرفع شعبها عن كل شعب وعن رهط الملائك والعباد
ولولا حبها يسمو بنفسى ويزجيها إلى سبل السداد
لما ابتسمت ثغور للأمانى ولا للحب فى روض الفؤاد

ويقول جميل صدقى الزهاوى :

إن العراق لأم لنا ونحن بنوها
إذا ألمّ ملم فإننا منجدوها
أوطاننا هى عز ومصدر للحياة
إن المجرة رمز لدجلة والفرات

واستمع إلى داود عمون اللبنانى يقول فى لبنان على الرغم من ضُر ناله على أرضها :

أحب بلادى على رغمها وإن لم ينلنى سوى عارها
ولست بأول ذى همة تصدى الزمان لإنكارها

ثم استمع إليه يُعيدُ إلى ذهنك هذا المعنى القديم الذى عاش عليه الناس من قبل حين كانوا يؤمنون بالوطن دار شفاء ، على أرضه يبرءون ، وبالوطن مثوى يحسون أن المدفون فى غيره غير مصون ، فإذا هو يقول :

هاج أشواقى إلى الوطن طائر غنّى على فَنَن
إيه يا قمرىّ إن بنا فوق ما يبكيك من شجن

يا بنى أمى إذا حضرت ساعتى والطب أسلمنى
اجعلوا فى الأرض مقبرتى وخذوا من ثلجه كفنى

ولقد قلت وأنا فى مطرح من مطارح الغربة ، وكان الاستعمار لازال ناشباً أظفاره :

القليل من متاع الحياة عندى كثير فى ظل وطن عزيز، وكثيره عندى قليل فى ظل وطن مهيض ، فما العافية وقد ذقت حلاوتها، وما الغنى وقد رأيت أثره على غيرى ، وما شىء مما أخاله طيباً أنا به ناعم أو هانىء إن هان لى وطن .

شهدتنى يوما وأنا أجود فى وطن فات وطنى بكثير على فقير معدم رث الثياب بالى النعال منهد البنيان فتمنيت أن أخلع عليه عافيتى وما أملك وأن أكونه على أن يخلع الله على وطنى أسباب العافية والجاه التى سبق بها وطنه وعز .

إنها لنعمة لا تعدلها نعمة ، بى أن أجوع وأعرى ، أما أن يهون وطنى فتلك قاصمة الظهر ، فأولهما أذى يصيبنا فى أبداننا، وثانيهما أذى ينال من أنفسنا ، وما يعدل أذى أذى .

— ١٠ —

ذاك قليل من كثير نطق به أدب الوطن فى عهده الأخير الباكى وعاش به الوطن فى الأدب ، سمعناه وقرأناه فى تلك الحقبة الخالية التى هب فيها الوطن العربى بدوله يناضل عن غرض واحد ويدفع عن هدف واحد ، ويسعى إلى أمل واحد ، ويتطلع إلى رجاء واحد هو أن يلقى عن عنقه ربقة الاستعمار وأن يرد إليه حريته .

فى تلك الحقبة الهائجة المائجة سمعنا وقرأنا . وفى تلك الحقبة الهائجة المائجة عاش الأدب العربى يعبر عن أمل خاص وأمل عام ، لم ينس عامه بخاصه ، بل عاش يذكى عامه بخاصه وخاصه بعامه ، وإذا هو على هذا أدب جامع تمزج بين المحن المختلفة فجعلها محنة واحدة ، وأحيا تلك النفوس الممتحنة على محنتها ومحن العرب جميعاً . فكانت نفسا واحدة .

غير أن هذه الصحوة من الأدب التى أيقظت الأنفس الراكدة وأخذت تدفعها إلى الأمام ولم تدعها حتى بلغتها مناها وأدركت بها أهدافها، فإذا هى حرة وإذا هى أرضها لها وإذا

أوطانها لا يزحمها عليها مزاحم ، إذا هذه الصحوة التى ملأت سمع الزمان يكاد يخلو منها سمع الزمان ، اللهم إلا فى الفينة بعد الفينة.

وأدب الوطن لا يعرف حربا دون سلم ، ولا سلما دون حرب ، ولا يعرف دعة دون هيج ، ولا هيجا دون دعة ، بل هو للزمن كله وللبيئة كلها وللحياة كلها ، غير أن الحرب تهيج والمحنة فيها قاسية والنفوس معها متهيئة والألسن معها متحفزة . من أجل ذلك كان الأدب مع الهيج أيقظ وأكثر لأن رسالته أكبر وواجبه أكثر والتقصير هناك خطير. ولكنه يُملى فى السلم عن دعة يقول للترفيه ويقول للأنس ، ولكن ما أحوج النفوس حين تصدأ بعد المحن إلى ما يجلو صدأها ويعيد أنسها وبشرها ، لذلك كان الأدب ذا رسالة متصلة حربا وسلما .

وأدب الوطن الذى يصحو مع الهيج يصحو مع السلم ، يصحو هناك ليثير الأنفس ويهيج الأفئدة ويصحو هنا ليلفت تلك الأنفس إلى مفاتن أرضه ومسارح ربوعه ومشاهد أنسه وجمال طبيعته ثم إلى روائع آثاره ومغانى عزه ومصانع مجده .

يلتفت لهذا كله ولمثل هذا كله أدب الأوطان ليمسك الناس موصولين بأوطانهم ، يعرفونها بمعالمها الحية ، لتبقى فى نفوسهم تلك المعالم حية ، يعتزون بها ويحمون لها وتكون لهم مقوّمات

ثابتة مركوزة فى القلوب والأفئدة والنفوس ، صامدة أمام الأعين مدوية فى الآذان .

وقديما كان الشعراء يتغنون بهذا كله وينشدون فى هذا كله، ولقد قرأنا لشعراء مصر الكثير فيما كان بين أيديهم من مشاهد يقول الصفدى :

سقيا لمصر وماحوت … من أنسها وأناسها
ومحاسن فى نفسها … تبدو وفى مقياسها

المقس : موضع على النيل كان يجلس فيه صاحبُ المكس .

ومسرة كاساتهـا … تجلى على أكياسها
وسطور قرط خطها السا … رى على قرطاسها
ودمى كنائسها ولا … تنس ظباء كناسها
ولطـافة بجـلالة … تبدو على جلاّسها
ومواسم كل المنى … للنفس فى أنفاسهـا
ومراكب لعبت بها الـ … أمواج فى وسواسها

وقالوا فى النيل فأكثروا ، لزموه فى حركاته وسكناته، وغيضه وفيضه، وقالو فى جميع ما يّضم مصر . يقول الحمامى نصير الدين :

رأيت فتى يقول بشط مصر … على درج بدت والبعض غارق
إذا غطى لنا الدرج استقمنا … فقلت نعم وتنصلح الدقائق

ويقول شديد الدين المصرى :

يانيل يامك الأنهار قد شربت منك البرايا شرابا طيبا وغذى
وقد دخلت القرى تبغى منافعها فعمها بعد فرط النفع منك أذى
فقال تذكُر عنى أننى ملك وتنثنى ناسيا أن الملوك إذا

وهو يشير إلى قوله تعالى : إذا دخلوا قرية أفسدوها .

ويقول شاعر آخر :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم إليه ويمضى حين يستغنون عنه

وقال ابن المعتز فى بركة الحبش والخليج :

كأن البركة الغنّاء لما غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الضحى مرآة قين قد انصقلت ومِقبضها الخليج

وكما قال شعراء مصر قال غير شعراء مصر ، يصفون مايقوم على أرضهم . وما نظن الأدب فى أمسه قصر هناك كما لم يقصر هنا ، ولكننا نجد أدب الأوطان فى يومه قد فتر شيئاً . ولا نجد للوطن فى الأدب العربى اليوم صورته الحية التى تشيد بمحاسنه ، وتتغنى بمآثره ، لانريد أن نعيش فى ذلك على قديم بل نريد أن نسمع ونقرأ مع كل يوم جديدا ، ليشهد الأبناء أن مافتن

الآباء فاتن ، وأن ماعاش له الآباء سوف يعيش له الأبناء ، وطن خالد كتبت له العزة وسوف يعيش أبناؤه لإعزاز هذه العزة فى ظل أدب يذكرهم بهذا كله . ويصف لهم هذا كله . ويلفتهم إلى هذا كله . ليرددوه مع مايرددون ، ولينشقوه مع الهواء ، وليسمعوه مع الأصداء ، ولتلهج به الألسنة وتجب به القلوب ما أظلتهم سماء .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١	— الثقافة العربيـة اسبق من ثقـافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الإشـتراكية والشيوعية	للأستاذ على أدهم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور پول غليونجى
٦	— فجر القصة	للأستاذ يحيى حقى
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للاستاذ عبد الرحمن صدقى
١١	— المريخ	للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى
١٢	— فن الشعر	للدكتور محمد مندور

١٣ — الاقتصاد السياسي ... ... للاستاذ احمد محمد عبد الخالق
١٤ — الصحافة المصرية ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزه
١٥ — التخطيط القومي ... ... للدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن
١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... للدكتور ثروت عكاشة
١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبد المنعم الصاوي
١٨ — طريق الغد ... ... للأستاذ حسن عباس زكي
١٩ — التشريع الإسلامي واثره في الفقه الغربي } للدكتور محمد يوسف مرسي
٢٠ — العبقرية في الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف
٢١ — قصة الأرض في إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح
٢٢ — قصة الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيوني هزاع
٢٣ — صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد أحمد بدوي
٢٤ — الحب الإلهي في التصوف الإسلامي للدكتور محمد مصطفى حلمي
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٢٦ — صراع البترول في العالم العربي للدكتور أحمد سويلم العمري
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهواني
٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقي
٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصر للأستاذ محمد صدقي الجباخنجي
٣٢ — الرسول في بيته ... ... للاستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ — اعلام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمد خالد

٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ — إخناتون ... ... للدكتور عبدالمنعم أبو بكر
٣٦ — الذرة في خدمة الزراعة ... للدكتور محمود يوسف الشواربى
٣٧ — الفضاء الكونى ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى
٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام ... للدكتور شكرى محمد عياد
٣٩ — قضية الجلاء عن مصر ... ... للدكتور عبدالعزيز رفاعى
٤٠ — الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عزالدين فراج
٤١ — العدالة الاجتماعية ... ... الأستاذ المستشار عبدالرحمن نصير
٤٢ — السينما والمجتمع ... ... للأستاذ محمد حلمى سليمان
٤٣ — العرب والحضارة الأوربية ... للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
٤٤ — الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبدالعزيز صالح
٤٥ — صراع على أرض الميعاد ... للأستاذ محمد عطا
٤٦ — روّاد الوعى الإنسانى ... ... للدكتور عثمان أمين
٤٧ — من الذرة إلى الطاقة ... ... للدكتور جمال الدين نوح
٤٨ — أضواء على قاع البحر ... ... للدكتور أنور عبدالعليم
٤٩ — الأزياء الشعبية ... ... للأستاذ سعد الخادم
٥٠ — حركات التسلل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوى
٥١ — الفلك والحياة ... ... للدكتور عبدالحميد سماحة
والدكتور عدلى سلامة
٥٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر ... ... للدكتور زكى المحاسنى
٥٣ — النيل الخالد ... ... للدكتور محمد محمود الصياد
٥٤ — قصة التفسير ... ... لفضيلة الشيخ أحمد الشرباصى
٥٥ — القرآن وعلم النفس ... ... للأستاذ عبدالوهاب حموده

٥٦ — جامع السلطان حسن وماحوله ... للأستاذ حسن عبدالوهاب
٥٧ — الأسرة فى المجتمع العربى بين الشريعة الإسلامية والقانون } للأستاذ محمد عبدالفتاح الشهاوى
٥٨ — بلاد النوبة ... ... للدكترر عبدالمنعم أبو بكر
٥٩ — غزو الفضاء ... ... للدكترر محمد جمال الدين الفندى
٦٠ — الشعر الشعبي العربى ... ... للدكتور حسين نصار
٦١ — التصوير الإسلامى ومدارسه ... للدكتور جمال محمد محرز
٦٢ — الميكروبات والحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح
٦٣ — عالم الأفلاك ... ... للدكتور إمام ابراهيم أحمد
٦٤ — انتصار مصر فى رشيد ... ... للدكتور عبدالعزيز رفاعى
٦٥ — الثورة الاشتراكية (قضايا ومناقشات) للأستاذ أحمد بهاء الدين
٦٦ — الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى
٦٧ — عالم الطير فى مصر ... ... للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق
٦٨ — قصة كوكب ... ... الدكتور محمد يوسف موسى
٦٩ — الفلسفة الإسلامية ... ... الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٧٠ — القاهرة القديمة وأحياؤها ... الدكتورة سعاد ماهر
٧١ — الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء } للأستاذ محرم كمال
٧٢ — قرطبة فى الأدب الإسلامى ... للدكتور جودة هلال ومحمد صبح
٧٣ — الوطن في الأدب العربى ... للأستاذ ابراهيم الابيارى

الثمن قرشان فقط

مطابع دار القلم بالقاهرة